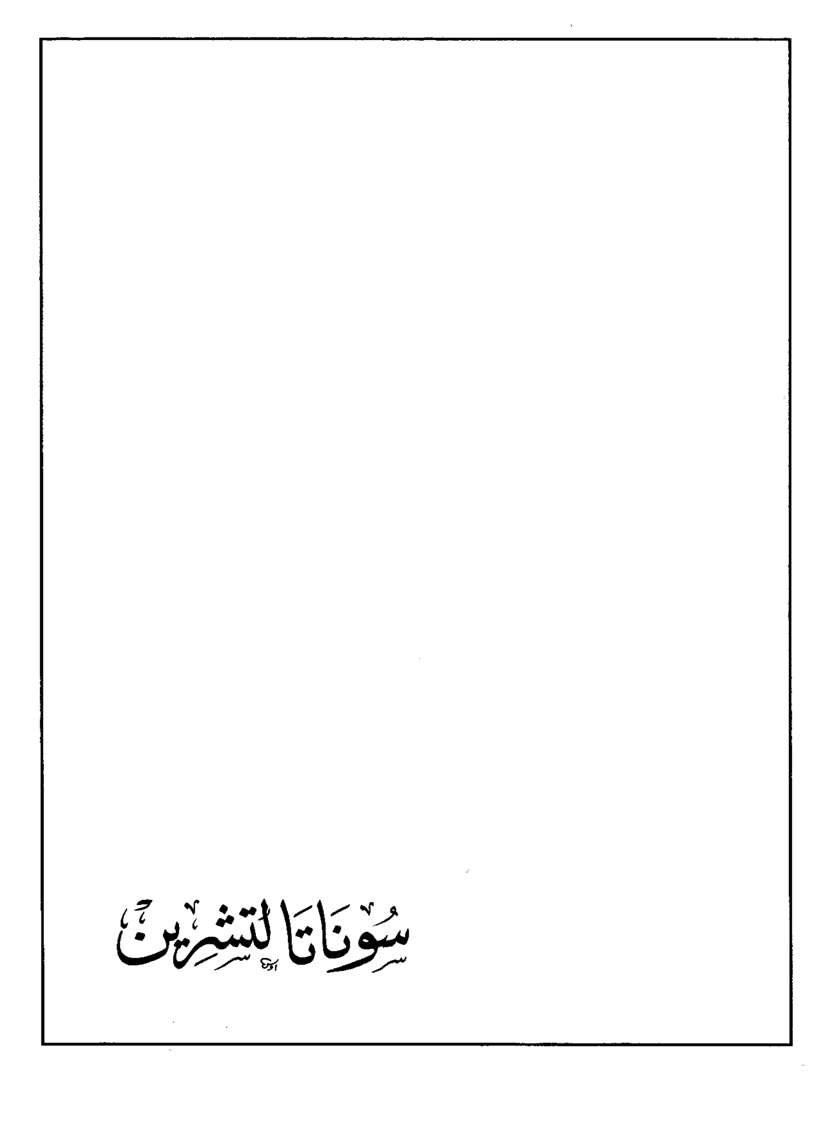


سلسلة الأدب

# سوناتا لتشرين

أسامة أنور عكاشة

رواية


سوناتا لتشرين




برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام

د . محمد صابر عرب

تصميم الغلاف

د . مدحت متولى

الإشراف الفنى

ماجدة عبد العليم
على أبــو الخيــر
صبرى عبد الواحد

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

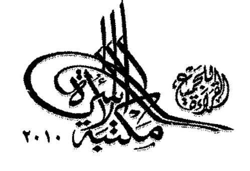
الجهات المشاركة

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعــلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
المجلس القومى للشباب
وزارة التنمية الإقتصادية

# سوناتا لتشرين

رواية

أسامة أنور عكاشة



# سوناتا لتشرين

لوحة الغلاف من أعمال الفنان : عبد السلام عيد

عكاشة ، اسامة انور .
سوناتا لتشرين : رواية/ اسامة انور عكاشة. ـ
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.
١٨٤ ص ؛ ٢٠ سم .
تدمك ٥ - ٥٢٤ - ٤٢١ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ ـ القصص العربية
أ - العنوان
رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٣١٢ / ٢٠١٠
I.S.B.N 978-977-421-524 -5
ديوى ٨١٣

# توطئـة

مثل كل الأحلام الكبرى التى بزغت منها مشاريع عملاقة أدت إلى تطور مجتمعاتها، ولهذا أرسى **مهرجان القراءة للجميع** جذوره الراسخة فى الأرض المصرية منذ عشرين عامًا.. لقد انطلق أهم مشروع ثقافى فى العالم العربى عام ١٩٩٠ تحقيقًا لحلم السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** راعية المهرجان، وصاحبة فكرته والتى دشنته آنذاك بافتتاح عشرات المكتبات فى جميع ربوع الوطن، وأطلقته فى سماء الواقع برؤية واضحة ومحددة تستند على الإيمان بأن الثقافة هى وسيلة الشعوب لتحقيق التقدم والتنمية بما لها من قدرة على تحويل المعارف المختلفة إلى سلوك متحضر، وإعلاء المُثل العليا، وقيم العمل والإنجاز، وإشاعة روح التسامح والحرية والسلام التى دعت إليها جميع الأديان، بهدف أن تُكوِّن ثقافة المجتمع بتأصيل عادة القراءة وحب المعرفة، لذا فإن وسيلة المعرفة الخالدة ستظل هى الكتاب الذى يسهم فى إرساء دعائم التنمية، وتحقيق التقدم العلمى المنشود.

لقد اتسعت روافد الحملة القومية **للقراءة للجميع** طوال الأعوام العشرين الماضية، وأصبحت تشكل فى مجملها دعوة حضارية للبناء الروحى والفكرى والوجدانى للإنسان المصرى نابعة من الإيمان العميق بأن الثقافة هى بكل المقاييس أفضل استثمار لبناء مجتمع المستقبل، وهى الجسر الرئيسى للشباب للحاق بركب الحضارة المعاصرة، بل تكاد تكون هى الوسيلة الوحيدة لنشر قيم العلم والتسامح والديمقراطية والسلام الاجتماعى والتطور الحضارى، وترسيخ قيم المواطنة وقيمة دور المرأة،

وتعزيز قيمة التجدد الثقافى والتفكير النقدى والحوار ومعرفة الآخر والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى، وأيضًا إبراز تواصل الإبداع المصرى من خلال نشر الآثار الأدبية لـ «مختلف أجيال المبدعين».

ومنذ العام الرابع لمهرجان **القراءة للجميع**؛ أصبحت **مكتبة الأسرة** من أهم روافده، وقدمت طوال ستة عشر عامًا دون توقف ملايين النسخ بأسعار رمزية لإبداعات عظيمة لشباب المبدعين وكبار الكتاب الذين أثروا المشروع فكريًا وثقافيًا وعلميًا ودينيًا وتراثيًا وأدبيًا، كما قدمت الموسوعات الكبرى التى تُعتبر أعمدة هذه المكتبة، والتى شكلت مسيرة فكر النهضة فبعثت فى نفوس الشباب من جديد الإحساس بالفخر بما قدمته أمتهم من كنوز إبداعية ومعرفية وفكرية للبشرية، وأقامت جسرًا يصل بين ماضيهم وحاضرهم، ويصل بين حاضرهم ومستقبلهم، كما بعثت فيهم روح الانتماء القوى لهويتهم المصرية والعربية، ولما لا وقد أطلت عليهم مكتبة باذخة الثراء تتكئ على مؤلفات حضارة مصرية قديمة ما زالت قادرة على إدهاش العالم حتى هذه اللحظة بما احتوته من تقدم فنى وفكرى وعلمى وفلسفى وأدبى شكّل فجر «ضمير الإنسانية» وحضارة إسلامية أنارت ظلمات أفلاك البشرية لحقب طويلة من الزمان، ووضع أعلامها بعض أعمدة الحضارة المعاصرة فى مجالات الطب والفلك والرياضيات والآداب!.

لهذا كله ستواصل **مكتبة الأسرة** هذا العام نشر رسالتها بالسعى قدمًا نحو تطوير أدائها، وتحقيق حلمها الأكبر بتكوين ثقافة المجتمع كله بأيسر السبل، والتأكد من اطلاعه على جميع ما أنتجته عبقرية الأمم ممثلة فى تراثها الأدبى والعلمى والفكرى المستنير.

**مكتبة الأسرة**

**٢٠١٠**

# مقدمة المؤلف

من خلال ارتباط هذا القلم بكتابة الدراما التليفزيونية على مدار ثلاثين عامًا (١٩٧٧–٢٠٠٨) لم ينس صلته بأرض البدايات الحقيقية.. يوم كنت راهبًا متنسكًا في محراب الأدب المكتوب: أدب الرواية والقصة، ولم يرد على خاطري في أي لحظة أن الطريق سينحو بي على أرض لم أرتدها من قبل.. بل ولم أسمع عنها قبل حلول الستينيات من القرن العشرين.. حين فوجئنا بأن هناك جنس أدبي وفني جديد يمكنه أن يسد الفجوة التي حفرتها بين الأدب المكتوب للقراءة وبين المتلقي.. وهي فجوة الأمية.. التي استطاعت الدراما المرئية أن تسدها لتصبح نوعًا حيًّا من الأدب السلس الذي يصل بسهولة إلى وجدان كل مصري متخطيًّا عوائق الأمية وتعقيدات اللغة المنطوقة سواء كانت فصحى أو عاميه..

جرفتني جاذبية الدراما وخطورتها وتميزها بقدرتها الفائقة على استقطاب أكبر قاعدة بشرية للتلقي ( لا يتاح لأي وسيط فني أن يتلقاه في نفس اللحظة جمهور يتخطى تعداده قرابة العشرين مليونًا) وحملتني أمواجها إلى شواطئ بعيدة لم أستطع أن أقاوم التيارات التي حملتني إلى ضفافها.. فانغمست حتى أذني سابحًا ومبدعًا ومستمتعًا.. لكني لم أستطع أبدًا نسيان الحب الأول، وظللت متشبثًا بالأرض التي شهدت فجر موهبتي.. وحرصت على بقاء انتمائي الأول لأصولي الروائية والقصصية.. حيث يمارس الكاتب فيها حريته الكاملة ويتسع أمام فضاءها غير المحدود.. وآليت على نفسي أن أكتب رواية أو مجموعة قصصية وأقدمها للناس كل عام.. وجاءت «سوناتا لتشرين» لتكون رواية هذا العام.. أقدمها وأنا ارتجف انفعالاً وخجلاً.. متسائلاً: هل يغفر لي قرائي غياباتي وندرة إنتاجي؟ أم تراهم يلتمسون لي شيئًا من العذر؟ أم سيؤجلون الحكم عليَّ إلى ما بعد تذوق الثمرة؟

في كل الأحوال أراني مطالبًا بالاعتذار والتماس العفو .. فالتقصير دائمًا ينتج عن اختيار خاطئ وموازنة غير ناجحة؛ ولكني أسبق إلى طلب التسامح وتخفيف العقوبة .. فأنا لم أرتكب فعل خيانة الحبيب الأول وإنما أشركت في هواه ندًا يليق به.

وأقصى أمنياتي مع صدور هذه الرواية عن دار نشر محترمة استطاعت في زمن قياسي أن تكتسب سمعتها الطيبة لدى الكتّاب والقراء وأن تراكم

رصيدها من الثقة.. أن يرى القارئ من خلالها وجهًا آخر لصاحب هذا القلم يختلف الآخرون في تحديد نسبه .. للأدب – أو للدراما.. ولكنهم سيتفقون على انتمائه لحالتي... الإخلاص والصدق.. فإذا تحققت هذه الأمنية فلصاحبة الدار وكل العاملين معها أدين بالفضل والامتنان.

أسامة أنور عكاشة

نيسان- إبريل ٢٠٠٨



# سوناتا لتشرين(١)

«لماذا تأتي الأشياء الصحيحة في التوقيت الخطأ ؟.. ولماذا تتحقق الأمنيات بعد فوات الأوان ؟..».

كتبها على ظهر ورقة المفرش العريض الذي يغطي مائدة الركن عند النافذة العريضة المطلة على حديقة الفندق الكبير. في ذلك الصباح الخريفي المشمس في يوم من أيام تشرين حين انعقد المؤتمر الذي كلفته المجلة التي يرأسها بأن يكتب لها عنه! وكانت بادرة طيبة أحس لها بالامتنان وأرجعها لرغبة صديقه القديم «أ. ع» في اجتذابه مرة أخرى لعالم الأحياء!..

نعم.. كان في نظر صديقه هذا أنه قد انسحب من عالم الأحياء! باغته بهذا الرأي الصادم حين التقى به مصادفة منذ أشهر قليلة على رصيف

محطة «سيدي جابر» ثم تجاوروا في القطار «التوربيني» المتجه إلى القاهرة! وطوال السفر لم ينقطع بينهما الحوار.

– إن استسلامك لمن دبروا لك القضية إياها ونجاحهم في إرهابك لدرجة أن تنسحب وتبتعد وتتقوقع مخاصمًا الجميع ليس إلا نوعًا من النفي الاختياري للذات.. فأنت لم تقاوم ولم تحاول أن تصمد وأن تتصدى.. وألقيت السلاح من أول جولة.. واختبأت وراء غلاف من الترفع والكبرياء الجريح وأقنعت نفسك بأنك إنما تنأى بكرامتك عن المهاترات والمعارك الفاسدة.

– أنا لم أتظاهر بشيء ولم أنتحل لنفسي ما تتهمني به.. فهكذا أنا.. وأنت تعرفني! لا أحب أن أستدرج إلى معارك يختار خصومي مكانها وزمانها! وأحرص دائمًا على أن أكون «أنا» من يختار الخصم والحلبة وتوقيت النزال.. ومع ذلك فلم أنسحب هربًا أو احتماء بقوقعتي.. بل ابتعدت «قرفًا» حين أيقنت أني أواجه أعدائي.. وفي الوقت نفسه يثب أصدقائي على ظهري بدلاً من أن يتولوا حمايتي.. محققين ذلك الدعاء القديم: اللهم أحمني من أصدقائي.. أما أعدائي فأنا كفيل بهم.. ولعلك تراجع ذاكرتك قبل أن تهاجمني!

– أفهم ما تقول وأعرف من تقصد! ثم أنني لا أهاجمك.. بل أريد استثارة ما كمن في أعماقك من طاقة تكبتها نوازع اليأس والإحباط!

- لم أعد شابًا بعد يا صاحبي.. فقد بات مستقبلي خلفي.. وما بقى من حصاد الطموح والأماني القديمة يكفي بالكاد لتأمين ما بقى من العمر.. فخل عنك محاولات التحفيز والاستثارة لأن الرصيد قد نفد..
- إذن فعليَّ وأنا أجاملك وأساويك في العمر أن أنزوي بدوري! ولكن لا.. لن أفعل ولن أيأس من المحاولة معك.. خاصة وقد توليت أخيرًا رئاسة تحرير مجلة «.. » ما رأيك في العودة والعمل معي مشرفًا على «ملحق الأدب والثقافة».
- الرماد هذه المرة لا يخفي تحته جمرًا يمكن أن يشتعل ويتوهج مهما نفخت فيه! وحقيقة الأمر أنني فقدت الرغبة منذ زمن ولم يعد هناك حنين يخالجني للعمل! وأنا أستمتع حقًا بحياة التبطل والاعتزال فأخلو إلى هوايتي القديمة.. أقرأ كل ما فاتني وهو كثير.. وأسمع كل ما ضاق وقتي عن سماعه أيام الانشغال بالعمل. وأرتاد المسارح ومعارض الفن التشكيلي والحفلات الموسيقية.
- حسنًا.. لا أريد أن أفسد عليك «الاعتزال» ومتعة الكسولة.. ولن أطالبك بالتخلي عن شيء منها.. فقط أعرض عليك أن تشرك في هذه المتع ما يجمع بينهما وبين متعة العمل عن بعد؟.. ما رأيك في أن توافينا من منفاك الاختياري هنا في الإسكندرية برسالة بين الحين والحين تغطي الأنشطة الفنية والأدبية بها وتحللها وتلقي عليها الأضواء؟..

كان الاقتراح مغريًا.. وقد استجاب له بالفعل وبدأ يراسل المجلة التي احتفت برسالته وأفردت لها مكانًا ثابتًا وملفتًا؛ مما شجعه على الاستمرار وقد تضاعفت في أعماقه مشاعر الامتنان والعرفان لصاحبه.. وجاء هذا الملتقى الثقافي.. الذي انعقد في الفندق العريق الذي تحيطه حدائق «المنتزه» وتطل شرفاته الخلفية على مياه المتوسط. وحرصت المجلة التي يرأسها على أن تحجز له جناحًا بالفندق رغم معرفتهم بأن له مسكنًا خاصًا يقيم به.

كلا.. لم يكن ذلك كله ما يعنيه قلمه حين خط تلك العبارة تلقائيًا وبلا تعمد على مفرش المائدة «لماذا تتحقق الأماني بعد فوات الأوان؟».

لم يكن السؤال مرتبطًا بعودته إلى العمل.. ولا بمشاركة ما في فعاليات أي تجمع أو لقاء.. لكنها مصادفة أخرى عرضت منذ اليوم الأول لانعقاد الملتقى.. وفي حفلة الاستقبال التي تلت الجلسة الافتتاحية.. حين رآها تقبل نحوه مهللة وقد علت وجهها تلك الابتسامة الساحرة التي تضيق لها عيناها في تعبير عبقري عن «تألق الضوء بإخفائه».. فتاة ثلاثينية.. نضرة.. صبوحة.. طبعت ملامحها بميسم جمال شديد الخصوصية.. له ذلك الحضور «اللافح» الذي يباغت من يتعرض له ويجرده على الفور من كل أسلحة الدفاع عن النفس.

وكان أول البغتة ما اشتعلت به أذناه من حرارة اجتذبتها من أطراف أنامله التي تبردت وكأنها خرجت لتوها من «الفريزر».

قدمت نفسها له بكونها إحدى تلميذاته.. وحاولت أن تذكره بما تلقته عنه في ذلك «الكورس» أو المقرر الدراسي الذي انتدب لتدريبه من الخارج.

– كان ذلك منذ عشر سنوات أو أكثر يا آنسة..

– أعرف أنك لا شك قد نسيت.. لكن طلابك لم ينسوا.

صوتها نفسه كان بمثابة الحركة الثابتة في معزوفة البغتة التي غمرته ذلك المساء.

– هل يضايقك يا أستاذي أن أنتهز فرصة اللقاء؟..

ولأول مرة منذ سنوات طويلة تضطرب تلك الخفقة في صدره مخلفة ما يشبه الألم.. ولم يكن هناك في نظره ما يبررها.. خاصة والسؤال يبدو صريحًا مجردًا من أي إيحاءات.. والفتاة لم تطلب أكثر من أن يتحمل حديثها.

– يقول أهلي وأصدقائي عني أني ثرثارة ملعونة.. فما بالك وعندي مخزون قديم من الأسئلة والاستفسارات التي تمنيت وأنا طالبة تنصت إليك في محاضرات ذلك «التيرم» أن ألقاك مرة لأعرضها

عليك.. وقد واتتني الفرصة بعد عشر سنوات.. فهل تتحملني؟
.. ألقت عليه سؤالاً لا يمكن أن يرد عليه إلا بالإيجاب!.

وكان السؤال مجرد.. بداية!

# سوناتا لتشرين (٢)

- لماذا رحلت عن القاهرة واعتزلت ؟..

وقبل أن يجيب واصلت تساؤلاتها..

- كنت ملء السمع والبصر.. وكانت المجلة التي أصدرتها ورأست تحريرها تمضي من نجاح إلى نجاح.. وتحقق خلال فترة قياسية شهرة مدوية.. وكان مقالك الأسبوعي حدثًا ينتظره القراء ويظل محل حواراتهم وتعليقاتهم طوال الأسبوع وحتى يصدر العدد الجديد.. حتى جاء عدد خلا من المقال.. ولم يجد القراء اسمك في مربع صغير أسفل الصفحة يقول إن الأستاذ «أ.ع» يعتذر عن كتابة مقاله الأسبوعي وسيواصل الكتابة بعد رجوعه من مهمة صحفية خارج مصر.. وانتظرنا العودة.. لكنك لم تعد.. مرت أسابيع وكرت شهور لم ينتبه فيها إلا القارئ المتفحص لغياب اسمك من «ترويسة» المجلة وحلول اسم آخر.. وتناثرت أقاويل وشائعات

لم يتتبعها إلا القلة ممن يعرفون قدرك ويفتقدون قلمك.. فللناس مع النسيان قصة تاريخية تتكرر في رتابة الاعتياد.. أما نحن.. تلاميذك.. وشباب الصحفيين الذين حفظوا لك الكثير من العرفان؛ فقد اتفقوا في ثرثراتهم على أنك تعرضت لمؤامرة بالغة الإتقان والحقارة أجبرتك على الاستقالة والاعتزال.

صمتت ولهاثها يكاد يقطع أنفاسها..
في صمت قرب منها كوب الماء.. ابتسمت شاكرة ورشفت منه قليلاً..
وحين بدأت تستعد لاستئناف الكلام بادرها في هدوء وإيقاع وئيد..
- قصة قديمة دربت نفسي على نسياتها حتى نجحت.. ولا أريد أن أفسد نجاحي بالعودة إلى نكأ ما اندمل من جراح.. واستحضار عذابات لا أراني قادرًا على تحملها ولو بالحكي والرواية! فإذا كنت تفكرين في الحصول على سبق تكشفين فيه للناس حقيقة ما حدث للسيد «أ. ع» وتقدمين لقرائك قصة ميلودرامية شيقة؛ فلست أراني قادرًا على مساعدتك.. والآن اسمحي لي!

ونهض عن مقعده وحياها بحركة خفيفة من رأسه ومضى مبتعدًا.. ليسمعها تهتف في إثره.
- أستاذ.. أرجوك..

سمع صوت إزاحة كرسي وخطوات تسارعت قليلاً ثم تباطأت.. وتوقفت! لم يلتفت! لم يشأ أن يضعف.. ففي عينيها قدرة غير عادية على التأثير في محدثها ومحاصرته وتهيئته للتسليم بما تريد.. وتذكر أنه طوال رده على كلامها كان حريصًا على إبعاد ناظريه عنها والنظر في اتجاه لا يتقاطع مع مجال نظرها.

دخل قاعة الاجتماعات وحاول أن يشغل نفسه بتدوين ملاحظاته ولكن جزءًا من وعيه كان منصرفًا إلى ذلك الصف البعيد المخصص للصحفيين.. بطرف عينه كان يبحث عنها وحين لم تدركها النظرة الجانبية التفت برأسه التفاتة كاملة.. وضايقه أن شعورًا بالإحباط قد دخله حين اكتشف أنها غير موجودة بالمرة! وسبب له هذا الضيق نوعًا من العصبية غير المبررة فلملم وريقاته ونهض منسحبًا.. وكاد يصعق حين لمحها.. كانت تجلس خلفه مباشرة.. لذا لم تدركها نظرة البحث أو التفاتة الاستكشاف! وكانت تلوح على وجهها ابتسامة يسيرة لم يتح له أن يتمعنها فمضى لا يلوي على شيء.. كانت الليلة دافئة رغم تلك النسمات الخريفية التي تحمل عطرًا اختلط باليود وملح البحر فانساب في الأعطاف يهدهد مشاعر التوتر التي بقيت تساوره منذ عودته.. وفي جلسته الأثيرة عند ركن الشرفة البعيد.. قبع منكمشًا وبجواره طاولة عليها كأسه وديوان شعر لنزار قباني.. كان مفتوحًا على إحدى القصائد تحت قنديل الشرفة يتماوج ضوؤه على الصفحة طبقًا لاهتزازات القنديل مع النسمات التي تسارعت فكادت تصبح ريحًا :

على دفتر.. سأجمع كل تاريخي على دفتر.
سأرضع كل فاصلة.. حليب الكلمة الأشقر..
سأكتب.. لا يهم عن..
سأكتب.. هذه الأسطر.
فحسبي أن أبوح هنا.. لوجه البوح.. لا أكثر..
حروف لا مبالية.. أبعثرها على دفتر..
بلا أمل بأن تبقى.. بلا أمل بأن تنشر..

زخة مطر مفاجئة لسعت وجهه.. وسقطت بعض قطراتها على الديوان فأسرع يحمله مع الكأس الذي لم يرشف منه إلا قليلاً ودلف إلى الصالة.. حيث أريكته الوثيرة.. في وسط مكتبة عامرة بعشرات الكتب التي لم يقرأها بعد (كان يحفظ الكتب المقروءة في خزانة غرفة المكتب..).. ووضع ديوان نزار في مكانه.. لأن دواوين الشعر لابد أن تبقى دائمًا في متناول يده.. إذ كان يحس دائمًا أن بداخله شاعرًا مجهضًا: جلس مسترخيًا يفكر في وسيلة تشغله عن استرجاع أحداث اليوم.. (أحنقه أن يعطي أحداثًا تافهة كما يراها أهمية لا مبرر لها.. فكان من شأن الحنق أن زاده توترًا..) وقرر أخيرًا أن لا شيء أفضل من التليفزيون.. هناك تلك الفضائية المتخصصة في عرض الأفلام الأجنبية.. وستتيح له أن يندمج مع أحدها.. ولا بأس إذا اجتذبه النوم، فكثيرًا ما نام على هذه الأريكة.. ربما أكثر من سريره.. هو يكره غرفة نومه.. بل يكره كل غرف النوم في أي مكان.. لهذا رفض أن يقيم في الفندق الذي يستضيف المشاركين في المؤتمر..».

كادت خواطر غرف النوم أن تجتذبه إلى مساحات من الذكريات التي جهد طويلاً لدفنها - ولعله نجح في تخزينها خلف أبواب العقل الباطن أو خيل إليه ذلك، وأمسك بجهاز التحريك عن بُعد ليفتح التليفزيون، لكن جرس التليفون قاطعه.. نظر إلى شاشة إظهار رقم الطالب.. فلم يجد رقمًا.. مما يشير إلى أن المكالمة واردة من أحد الفنادق أو ربما من الخارج.. تردد قليلاً ثم رفع السماعة..

- نعم..
- أستاذي! هل أنت غاضب مني ؟

فاضت مشاعره فجأة واكتشف أنه كان ينتظر هذه المكالمة..

- ولماذا أغضب منك.. وأنت من يحق لها أن تغضب ؟
- أنا غاضبة من نفسي لأني اقتحمت سياجك اليوم مرتين!
- ربما أعرف الأولى.. ولكن.. ما هي الثانية ؟
- هذه المكالمة.. أهاتفك دون إذن.. فأنت لم تعطني رقم هاتفك.. وتحايلت حتى حصلت عليه!
- أهلاً بك وأنا لست غاضبًا في الأولى ولا في الثانية..

حقًا.. إذًا فستقبل دعوتي.. أنا مع بعض الزملاء في محل صغير وأنيق له شهرة كبيرة في الإسكندرية.. وهم يريدون أن يحتفلوا بعيد ميلادي.. وأنا لن أحتفل إلا إذا حضرت.. فهل تحضر ؟

.. طبعًا لا.. كيف يقحم نفسه على مجموعة من الشباب.. لا يعرفهم وقد لا يألف أسلوبهم في الاحتفال ؟.. ثم إن حالة الطقس قد ساءت.. وهو لا يريد أن يتعرض لنزلة برد قد تجدد معاناة صدره من الحساسية القديمة.. ثم..

انتهى من ارتداء ملابسه.. وذهب إليهم.

# سو ناتا لتشرين (٣)

بعد دقائق قليلة زايله الحرج والإحساس بالغربة.. فكل أفراد «الشلة» كانوا يتميزون بمقدرة واضحة على إضفاء جو الألفة والحميمية على كل من يشاركهم أو يفد عليهم.

كانوا خليطًا من أعمار مختلفة.. وأنماط شخصية متباينة.. وعرف فيما بعد أن بعضهم سكندريون والبعض الآخر قاهريون (بالعمل أو بالموطن). ولكنهم جميعًا كانوا أصدقاء وإن تفاوتت أيضًا درجة ومتانة الصداقة.. وقد بدا واضحًا أنها تتمتع بمكانة محورية بينهم جعلتها بمركز القلب من الحفل الصغير الذي أقاموه (وتساءل ليلتها.. أكانت إحاطتهم بها مرتبطة بالمناسبة وباعتبارها نجمة الليلة وصاحبة الذكرى، أم أنها الطبيعة الدائمة المستقرة لشكل علاقتهم بها؟!).

ورحبوا به في حرارة لا يشوبها أي استغراب وكأنهم ألفوا حضوره أو اعتبروه «واحدًا منهم» . وقادته في احتفاء خاص إلى الركن المميز في ذلك المشرب الأنيق الذي فوجئ به رغم أنه يعتبر نفسه «شيخ حارة» يعرف كل مغاني ومرابع الإسكندرية على اختلاف مستوياتها.. لم يكن المكان جيدًا ولا منتميًّا إلى تلك النوعية من مشارب أو مقاهي العقد الأخير التي طغت عليها لمسات التحديث «المودرنيزم»! كان أقرب إلى الكلاسيكية والطابع الذي غلب على محال ومنتديات من القرن الماضي.. وربما كان أكثر شبهًا بنوادي «الخاصة» التي أقيمت على الطراز الإنجليزي مع لمسات «يونانية» لا تخطئها العين الفاحصة.

وقد ساعده الطابع الأليف والحميم الذي يسود المكان في التأقلم السريع مع «الاحتفال» والتجاوب السلس مع مبادرات الاقتراب والتودد ورفع الكلفة التي أبداها الجميع نحوه؛ كان قد فقد الإحساس بالتواصل مع الآخرين من سنوات كثيرة لم يهتم أصلاً بإحصائها، واكتشف في نهاية الليلة أنه اندمج معهم إلى درجة لم يسبق له أن تورط فيها.. وأقلقه هذا الاكتشاف فأفقده مشاعر الامتنان التي غزت أعماقه تجاه «ميريت» وأصحابها.. وبدلاً من أن يشكرهم ويودعهم بالود نفسه الذي ساد طوال الاحتفال؛ فوجئ بنفسه ينسحب بخشونة.. لابد للجميع من ملاحظتها..

خرج من المكان الدافئ لتلفحه نسمات الخريف الباردة فرطبت إلى

حد ما سخونة أحسها في أذنيه.. كان حانقًا من نفسه.. وكان نادمًا.. و لم يجد رغبة في العودة إلى المنزل.. وقرر أن يمشي.. «نعم.. أريد أن أمشي وأمشي حتى أسقط إعياء أو ألفظ أنفاسي.. أريد أن يعاودني هذا الألم الذي يعربد في صدري حتى يكاد أن يمزقه..».

بحذاء سور الكورنيش الحجري تسارعت به الخطى.. ثم راحت تتباطأ كلما أمعن في السير واستسلم لمناوشات الأفكار.. تتداعى.. ويأخذ بعضها برقاب البعض وتتناثر في أشلاء أسئلة تنفجر تتشظى وهي تطن في مسامعه وكأنها سرب من زنابير الحقل.

أي دافع صبياني جعلك تفسد الليلة وتسيء إلى هذه الثلة من الشبان والفتيات بعد أن احتضنوا شيخوختك وأدفأوا وحدتك وطامنوا روحك المثقلة؟.. أي نزغ شيطاني دفعك إلى أن تخسر في التو ما ربحته من مشاعر صادقة لم تصدر عن نفاق أو غرض فمن أنت الآن وماذا تملكه ليطمع فيه الآخرون؟ كن أمينًا مع نفسك واعترف.. ما الذي بدل الصفو كدرًا؟.. أهي ميريت؟..

هاجمه السؤال وكأنه لم يكن من وحي أفكاره.. فتسمر مكانه في بغت الاكتشاف.. وقد انشطر عن نفسه..

– نعم هي!
– أأنت غاضب منها؟

ولماذا يغضب منها وقد دعته إلى حفلها وأصرت على حضوره واستقبلته بفرحة غامرة نابعة من مشاعر جياشة؟ كلا.. لقد فعلت ذلك في البداية.. ثم تركته.. سلمته للآخرين وتنحت عن قلب الدائرة إلى نقطة ثانوية في محيطها تنتحي فيها بذلك الرجل الأربعيني الذي بدا مختلفًا عن الجميع.. وكأن له «موقعًا خاصًا» منها.. حتى حين قدمت لها إدارة المشرب كعكة عيد الميلاد.. وتحلق المحتفلون بها ليطفئوا الشموع.. كانت «ميريت» تمسك بذراع الرجل لينحني معها في اللحظة نفسها ويشتركان في طقس «خاص» .. بينما يصفق الآخرون طربًا.. كانت تلك هي اللحظة! أليس كذلك؟..

ولكن.. ما الذي أزعجك على وجه التحديد؟.. أرجوك لا تقل لي إنها الغيرة!.. ميريت لم تبد في أفق رؤيتك إلا منذ ساعات.. ولم تكن هناك أي فرص معقولة لتنبت في مشاعرك خلال هذه الساعات أي بذرة يمكن أن تتبرعم وتزهر بسرعة الضوء!..

استشاط غضبًا لعجزه عن إزاحة تلك الاحتمالات المنكرة وقرر أن يكف بأي طريقة.. فأشار إلى سيارة الأجرة وعاد إلى مسكنه.. قبل أن يفتح الباب سمع رنين التليفون.. وقرر ألا يرد.. فقد رجح أن يكون هي.. وستسأله بالضرورة عن سبب مغادرته ولن يجد شيئًا يتعلل به.. وحين صمت الجرس.. رفع السماعة.. واسترخى على أريكته المفضلة.. وكان قد وضع أسطوانة الفصول الأربعة لفيفالدي على الديسك وانسابت

إليه تهدئه كشأنها في كل مرة.. موسيقاه المفضلة للخلاص من ارتباك الأفكار وبلبلة الخواطر.. وحين نفذتْ تلك الحزمة البنفسجية من خلال ستار الشرفة المفتوح.. كان في اللحظة نفسها يهرب من سؤال أخير تردد متطفلاً على ترانيم فيفالدي وراح يراوغ الغفلة المحمومة..

وما الذي بقى لك من طمع في دنيا أدبرت عنك وأدارت لك ظهرها؟.. ثم.. أفاق على السؤال نفسه كأنه ثبت على جدار وعيه.. وكان الصداع يفتك برأسه..

ووضع سماعة التليفون تأهبًا لأن يطلب سكرتارية المؤتمر ويعتذر عن عدم حضور جلسة اليوم لمرضه..

وبينما كان يبحث عن أوراق المؤتمر المسجل عليها أرقام الهواتف.. فوجئ برنين الجرس.

- سيدي. لن أتطفل ولن ألح. فقط أريد أن تصارحني. ما الذي أغضبك منا بالأمس؟.. هل تفوه أحد منا بما أزعجك؟ أم صدر منا سلوك ضايقك؟
- ميريت!!
- نعم يا أستاذي.. وأرجوك ألا تنهي المكالمة..
- لن أنهيها بالتأكيد.. ولم تكوني أنت ولا أحد من رفاق أو رفيقات عيدك سببًا في أي ضيق من أي نوع.. أنا وحدي من تصرف بحمق لا مبرر له.. وأرجو أن تقبلي أنت وأصحابك

اعتذاري وأسفي البالغ.. وفي الحقيقة كنت أريد أن أعبر لكم جميعًا عن شكري وامتناني؛ ولكني تصرفت بعكس ما أردت.. وهذا بعض من سوء خلقي ورداءة طباعي.. فاغفروا لي..

- ماذا تقول يا أستاذي؟ من نحن حتى نغفر لك؟ أقسم لك أني لم أنم ليلة أمس. فقد ظللت أهاتفك دون أن ترد.. ولم أيأس.. لم أكف إلا بعدما عرفت أنك رفعت السماعة.. وأحسست ساعتها أنك فعلت هذا غاضبًا.. فكدت أجن وبقيت طوال الليل أراقب حالة الهاتف حتى تمكنت أخيرًا من الاتصال بك..
- وأقسم لك أنا أيضًا أنني لست غاضبًا فاعتبري الأمر منتهيًّا عند هذا الحد!

صمتت قليلاً ثم تساءلت بنبرة مرتجفة.. أتريد أن أنهي المكالمة؟
وبسرعة أجابها : إطلاقًا.. أنا أسمعك..
وبعد لحظات صمت أخرى تشجعت وسألته.. هل نراك في قاعة الجلسات.. أم خارجها؟

- كنت أنوي الاعتذار اليوم.
- أرجوك لا تعتذر.. فلم يبق في عمر المؤتمر إلا اليوم.. وغدًا تكون الجلسة الختامية.. ولا أقل من أن نراك كلما وأتت الفرصة قبل عودتنا إلى القاهرة..

# سوناتا لتشرين (٤)

«كيف وقد حل شتائي؟ وشتائي فصل مجدب لا يمطر.. و لم تعد صلاة استسقائي تقبل أو تجاب؟؟».

تتقاطر مزن الربيع في كفين تشققتا فراحتا تمتصان القطر فلا تتبقى منه رشفة لشفتين أحرقهما الجفاف.

إذ لا يصبح للربيع أن تهمى أمطاره لتملأ جداول الخريف بعكس قوانين الطبيعة! فخللي بيني وبين أيامي التي تصالحت معها يا طفلتي!

- طفلتك؟ حمل الصوت تهدجات أفكار واحتجاج أشعرته بامتنان خفي.. في المكان البعيد أتمنى! ولكن.. لأي غاية ينخدع الإنسان عن ذاته!.

وكيف لا تكوني طفلتي وكل تلك السنوات تتراكم أمواجًا بين ضفتينا؟

هل كان يحدث نفسه أم يواجهها فقط بابتسامته «البوذية» العالقة بوجهه وقد فشل في إزاحتها؟

وماذا ترى هي في صمته..؟ هل أحست فعلاً أنه يتبادل معها حوارًا غير منطوق..؟

- سأغادر غدًا.. بل تغادرون غدًا - فينا من قرر أن يبقى.. وبعضنا يعشق الإسكندرية في تشرين.. - إذن فستغادران.. غدًا!

قطبت ما بين حاجبيها في دهشة صادقة وهمست أنا ومن؟ - قدمته لي ليلة عيد ميلادك.. ولكنني نسيت الاسم!

- قدمت لك الجميع.. وكانوا سبعة - هو ذلك الذي انتحيت به جانبًا.. ثم أمسكت بذراعه وعدت به لتطفئ شموع الاحتفال.. أحمر وجه ميريت.. وانتابها وجوم لم يدم أكثر من لحظة.. تقصد «هاني»؟..

بلهجة من يفسر ويشرح ويعتذر راحت تتكلم.. ولم يسمع هو كلمة! كان يعاني من ألم مزدوج يعتصر بدنه.. كان إحساس المهانة والتضاؤل يؤلم كبرياءه بقسوة «ما الذي فعلته بنفسك؟ وأي حماقة دفعتك لأن تبدي هذه الغيرة المفضوحة؟ وكيف تراك هي الآن؟»

ما شأنك أنت بمن تهتم هي به أو تؤثره بمعاملة خاصة؟ ومن أعطاك الحق للتدخل في شئونها بسؤالك الفظ عن رفيقها في السفر؟.. وآلمه أكثر

أن يلحظ احمرار وجنتيها.. وأن يرى الإشارة المتضمنة لوجود خصوصية ما.. اختنق بإحساس مرير دفعه للنهوض.

- أرجو أن تغفري لي فظاعتي وغرابة أطواري!.. فأنا مضطر للذهاب!
- ولكن.. لم لا تسمع ما بقى لديَّ؟ لن يستغرق غير دقائق أخرى..
- أنا لم أسمع حرفًا مما قلته يا عزيزتي.. فعفوًا.. أعتذر عن سؤالي وعن التلميح الشارد الذي لا يعني إلا أنني مجرد عجوز أخرق.. يهرف بما لم يعد من حقه.
- أرجوك إن المهم جدًا بالنسبة لي أن تعرف..
- ما تريدين تفسيره لا يعني غيرك.. فلا تسمحي لمتطفل مثلي باقتحام حياتك!
- ولماذا لا أكون أنا من تريد أن تقتحم حياتك؟
- ماذا يمكنك أن تحصلي من رقاع الغاب وبراري الصقيع؟.. وأي مغنم يمكنك أن تجدي وسط أكوام الهشيم؟ لن تجدي غير أكوام من رماد الخصوبة الغابرة وكرات الشوك تتقاذفها هبات ريح الشمال المحملة بملوحة الأيام القديمة وذكريات أصياف منتحرة.

رذاذ ماء لاذع يلفح كلما ارتطمت الأمواج بصخور المكعبات الخرسانية الملقاة بجوار سور الكورنيش في الميناء الشرقي.. ويترك إحساسًا بوخزات إبرية يدغدغ خديه.. واستطابه فلم يسرع الخطى.. تلكأ مثل ذلك المتشرد

الذي يتسكع قافزًا عابرًا نهر الطريق من رصيف الكورنيش إلى رصيف الجزيرة الوسطى وكأنه يؤدي رقصة طقسية.. يقدمها له خصيصًا.. فيصر على الظهور له.. يغمز بعينيه كلما حاول أن يروغ منه! حدث نفسه بأن الرجل الراقص مخمور استبد به الثمل.. ولكنه تسلى به حينًا حتى اختفى فجأة وكأنه لم يكن.. هز رأسه ينفض عنها خدر السير الطويل وحاول أن يتذكر نهاية لقائه مع ميريت واكتشف أن هناك فجوة ضائعة بين ما قالته عن رغبتها في اقتحام حياته وبين ظهور المتشرد المخمور.

في منزله تضاعف ضيقه حين وجد رسالتها على جهاز الرد في هاتفه.. «أستاذي أنا ميريت أرجوك لا تغضب مني.. أنا عائدة للقاهرة صباح الغد.. وسأسافر وحدي.. وسأظل محتفظة بأملي في موافقتك!!».

على أي شيء تريده أن يوافق؟ إذن فالفجوة التهمت حديثًا عن أمر طلبته ورفضه هو..

حاول أن يتذكر فداهمه صداع عنيف صرخ لقسوته.. وانكفأ على فراشه يدفن وجهه في وسادته ويتمنى أن يغلبه النوم! لكن الفضول كان ينهش برأسه لابد أن يعرف! ولكن أين يجدها؟..

بعد لحظات أتاه صوتها.. كان حزينًا، أو خيل إليه ذلك..

- ميريت فهمي.. من يطلبني؟ كيف حدث أن يلتصق لسانه بسقف حنكه هكذا فجأة. بينما راحت هي تردد النداء عبر الهاتف.

- ألو.. ألو.

وسمع صوت إغلاق الخط فعاود الطلب.

- أنا يا آنسة ميريت! أظنك تركت لي رسالة على جهاز الرد! صمتت لعدة ثوان صمتًا لم يكن له أي إيحاءات..
- ألو.. آنسة ميريت..
- أريد أن أصدق! حقًا أنت يا أستاذ؟

نبرات الدهشة الممزوجة بالفرحة في صوتها لم تدع مجالاً لشك..

- أنا يا ميريت.. تكلمت في رسالتك عن أمر طلبته مني.. ما هو..
- طلبت بل رجوتك ألا تغضب مني.. وأكرر الرجاء الآن..
- وما الذي كنت تأملين في أن أوافق عليه؟
- أحقًا نسيت؟.. ربما فقد كنت شاردًا تمامًا.. وواضح أنك لم تسمعني.
- أسمعك الآن وبتركيز كامل!
- طموحي الصحفي مرتبط بموافقتك.. مستقبلي العملي كله مرهون بكلمة منك..
- أي كلمة..؟
- موافق.. موافق يا ميريت أن تكتبي مذكراتي..

إذن فهذا هو الأمر لا أكثر.. صحفية «شاطرة» تريد أن تحقق لها خبطة تحلم بها..

ولتذهب كل أوهامك إلى الهباء الذي جاءت منه!! ولو.. إنه تحد عليك أن تقبله.

# سوناتا لتشرين (٥)

.. كان الموعد في ذلك المحل الملامس لبحر «ميامي» على شاطئ المسابح الكلاسيكية القديمة.. وكان الموعد غروب نفس اليوم..! خلا المكان إلا منهما فلم تترك نسمات الخريف المسائية ببرودتها اللاسعة فرصة لتوافد الرواد.. وكان بينهما على «مائدة» البامبو الملون جهاز كاسيت نقال وضعته هي لتسجل حديث ضيفها كما اعتادت..

- نبدأ؟.. سألته وابتسامة خجلى تتردد في قسماتها..
- عن أية بداية تسألين؟.. فاجأتها إجابته التي ردت عليها السؤال..
- ألم تتفق على أن تمليني مذكراتك؟
- كنت أحسبك ستكتبين!.. أحب أن أرى الصحفي يكتب..! ولم أرض أبدًا عن قلمي وأوراق «الرول الدشت» بديلاً! وأعلم أنهم يفضلون الآن استخدام المسجل وتفريغ الشريط لكني صحفي

«دقة قديمة» .. ثم إنني لم أعد أكتب.. ولا أعرف كيف ساعد التقرير الذي ينتظرته مني عن المؤتمر.. وأظنني سأعتذر.

– كلا.. أرجوك! هتفت في جزع حقيقي.. «إنها الفرصة التي لابد أن تنتهزها لتعبر الخندق الذي حفرته حول منفاك! » .

«من قال لك أنني أريد العودة من المنفى؟ منفاي ليس جحيمًا ولا هو غربة! هو قلعتي أحتمي داخلها.. »

– أظنها قوقعتك لا قلعتك.

عاد من لحظات شروده ليجدها تمرق في الأفق الغائم جاثمًا على صدر البحر..

– ستمطر! كانت لحظاته الشاردة قد جرتها إلى شرود مماثل.. لكنها تنبهت لصوته.

– عفوًا أستاذي.. هل قلت أنها ستمطر؟

– رددت ما قرأته في عينيك وأنت شاخصة إلى حضن الأفق...

– أنا لا أكره المطر.. ولا البرد.. وأعشق الجو الرمادي الناعم.. وقد كنت أفكر منذ لحظات فيما لو فاجأنا المطر.. إنني أشم رائحته منذ الصباح.. وفي حقيبتي هذه معطف مطر خفيف.. أحضرته معي لكي أرتديه لو هطلت الأمطار.. وأمشي تحتها حتى تتوقف..

صمتت لحظة ثم أردفت بإيجاز من يقرر أمرًا لا يرضيه.. «هاني لا يحب المطر!»

غاظه أن تذكر صاحبها بدون مناسبة وأراد أن يقول لها شيئًا سخيفًا يضايقها ولكنها لم تدع له هامسة بأدب مهني تفضل.. ما رأيك أن تتذكر معنا سنوات طفولتك.. أعرف أنك من الشرقية.. وأظن قريتك في نفس قرية أحمد عرابي..

- نعم!! أنا من قرية رزنه «.. ولكني لم أراها أبدًا؛ لقد ولدت في الزقازيق عند أهل أمي.. ولكن اسمعي..»

لا داعي لهذا كله.. أنت تريدين قطعًا حياتي الشخصية.. فمن أكون حتى يهتم قراؤك بأصلي وفصلي وأطوار حياتي؟ كوني شخصية حقيقية وأمضي سريعًا إلى لب الموضوع!.. أنت تريدين قصة الأزمة التي قطعت تسلسل نجاحي وصعود نجمي ونفتني خارج الأسوار.. أليس كذلك؟

كانت اللهجة خشنة ومباشرة ومليئة بالضجر لدرجة أربكتها.. ولكنها كانت مضطرة لأن تجيب سريعًا فهمست.

نعم!.. وكانت الهمسة كفيلة بأن تطمئن ذلك الانفعال المتوتر الذي خامره وسيطر على مشاعره وأصابه بقدر من الميل العدواني تجاهها.. منذ هنيهات فقط (حين تحدثت عن هاني والمطر؟!).

ردت على المظروف الأصفر الصغير الملفوف بشريط لاصق.. وهو يشرع عينيه في عينيها..

- هل أغضبتك طريقتي في الكلام؟.. لا بأس. أعترف أني رجل ذو مزاج متقلب.. ورفيق غير مريح ومحدث لا يجيد التعامل مع مضيفته أو ضيوفه..

همت بأن تجيب مدافعة عنه ولكنه قاطعها اسمعي.. لن أستطيع الكلام ولا الحكي أمامك.. ولكني سأفعل ما هو أفضل ويريحك من ثقل «وجودي» هاك.. خذي هذا المظروف ففيه شريطين صوتين سجلتهما لنفسي! وحدي! كنت أنا وجدران بيتي فقط.. وحاولت أن أكون حرًّا.. فسردت كل شيء وتطرقت إلى مساحات شائكة لا أجرؤ على الاقتراب منها.. واعلمي أنه لم يكن في تصوري أن أدع شخصا أيًّا كان يسمع هذه الاعترافات.. بالمناسبة.. أرجو ألا تستخدمي عنوان «اعترافات فلان» ففيه نبرة ادعاء تجاري لا أحبه أفضل أن تصيغي الموضوع كله في قالب رواية قصة.. ولا يهمني في الواقع أن تذكري اسمي الحقيقي أو أن تسميني أي اسم يروق لك..

- أزاح ناحيتها لفافة الشرائط.. وبشكل تلقائي لم تتبد به أية إشارات «خاصة» ربت على يدها سريعًا وهو يؤكد لها بلهجة تطمين: اكتبي وانشري ولا تخشي أن أغير رأيي وأكذبك.. فمعك الدليل الدامغ.. الرواية كلها بصوتي على الشرائط..!

كانت السحب تتكاثف أو كانت ميريت ترتجف في انبهارها الذي أثلج أطرافها وألهب وجنتيها وأذنيها..

– لي شرط وحيد إذا قبلت تركت لك الشرائط ومضيت لحال سبيلي.. بعد أن تسمعي الشرائط وتكتبي قصتك لا تتصلي بي.. لا تهاتفيني.. ولا تسعي للقائي.. فلن أستطيع أن أواجهك بعدها..

صمتت.. ورنت إليه بعينين مفعمتين بالحيرة والدهشة..

– ألا تراه شرطًا مجحفًا يا أستاذي؟ ألست تضعني في مواجهة اختيار مستحيل؟

– صدقيني يا طفلتي.. أنا أرفق بك.. فسيثقل عليك ما تسمعينه من هذه الشرائط ولن يكون أمرًا مريحًا أن تريني بعدها..

– ألا تترك لي حرية الاختيار؟ أمر آخر إذا أذنت لي.. ألا يمكن أن يغمض عليَّ أمر في هذه الشرائط وأريد أن أراجعك فيه أو أحتاج لمعونتك في استجلائه؟

– سيكون هذا من سوء حظك! لأني بالفعل لن أكون متاحًا.. والآن.. الجو يزداد برودة.. وعليك أن تختاري!

– سآخذ الشرائط.

عبرت سحابة فسدت الفرجة وارتسمت ابتسامة وانية على وجهه.. وأشار للساقي بأن يوافيه ببطاقة الحساب.. وبمجرد أن رأت الإشارة سرت رعدة باردة في جسدها كله..

- إذن فأنت جاد ولن تسمح لي بلقائك ثانية!

أومأ لها برأسه في حين وضع الساقي البطاقة أمامه.. ترك النقود ليمضي بها الساقي.. ثم همس لها..

- تمضين أنت أولاً!

ما الذي حدث لها في تلك اللحظة؟ أي شعور مر بك بالفقد يعتصر تلك الخفقات في صدرها ويحيلها إلى ضربات توئلمها (كان عليها أن تحذر أن تضع مواطئ أقدامها منذ البداية!.. ما لها ولرجل لم تعرفه إلا أيام الدراسة؟.. و لم طاردته في المؤتمر وأصرت على الاشتباك به؟.. وماذا يعني لها الآن بالتحديد حتى يساورها كل هذا القدر من الضيق والجزع وهي تبتعد عنه على إنذار بعدم الالتقاء)..

كما ساورتها أحلام المطر وقتها بعد خطوات!

ارتدت معطفها الخفيف المضاد للمياه.. واطمأنت على وجود الشرائط في الحقيبة.. وسارت على رصيف الكورنيش.. وكان اتجاه الأمطار القادمة من الغرب مائلاً تجاهها.. تغرق وجهها مياهه الغزيرة.

تسربت الأمطار. وأصابتها ببلل لم يضايقها! كانت تشعر بأنها تغتسل.. وتغتسل.. وتغتسل..

شربت من مياه المطر في شراهة.. وأحست بملوحة خفيفة على لسانها.. (ستتبخر المياه وتصعد ثم تعود لحضن الدائرة.. هكذا كتب مرة في مقال قديم قرأته له وهي طالبة في الجامعة واحتفظت به.. ونسيت أن تذكره به.. الدائرة.. سر البقاء..).

كان هاني ينتظرها في مدخل الفندق.. حملق فيها مبهوتًا..

- تأتين سائرة على أقدامك في هذه العاصفة؟.. أنت مجنونة!
- وأنت سيد العقلاء فلا تنتظرني.

وأصرت على أن يسافر كل منهما وحده..



# سوناتا لتشرين (٦)

.. وكأنها كانت تعد لطقس خاص تختلي فيه بمحراب لا يشاركها فيه أحد! أعلنت للجميع أنها ستعكف على موضوع تعده للنشر وتريد أن تنقطع له وأغلقت باب غرفتها وأعدت المسجل. وعلقت سماعتي الأذن لتسمع هي وحدها دون أن يتسرب الصوت إلى أي متسمع خصوصًا شقيقها الأصغر الذي يبدو فضوليًّا لدرجة المرض.. حقًّا هي لا تريد أن تثير حولها جوًّا من الغموض قد يثير بدوره مزيدًا من الفضول أو حب الاستطلاع ولكنها كانت تشعر «بأنه» قد ائتمنها على صوته قبل أن يأتمنها على أسراره وإلا ما حرص على إعطائها الشرائط! وحجته في الهروب من المواجهة لم تقنعها وفضلت عليها ما أرادت أن تصدقه وهو أن «يخصها» هي بما لا يسمح به لغيرها.. إنه في حالة خاصة جدًّا وكأنه يجلس معها و«يحدثها» ويحكي لها..

حكى ما حدث صبيحة ذلك اليوم من صيف عام سبق منذ عشر سنوات! كان في أوج عنفوانه.. يشق بقلمه الطريق نحو القمة مندفعًا واثقًا ثابت الخطى حتى سماه الآخرون «البلدوزر» وكانت تحقيقاته الصحفية المتوالية تشغل انتباه الآلاف الذين رفعوا توزيع الصحيفة إلى أرقام قياسية وتثير المعارك الصحفية والسياسية المستمرة التي تشبه الهزات التابعة بعد الزلزال الكبير..

نصحوه أن يتمهل وأن ينتبه لنفسه حتى لا يكون شهابًا يمرق ثم يحترق وحذروه من المبالغة في تحدي الأقوياء؛ لأن قوتهم لا سقف لها وهي تمتد أفقيًا إلى كل أرجاء الساحة.. ولا يوجد مكان.. أو إنسان بمنأى عن بطشها! سمع الكثير وأضيئت أمام عينيه كل الأنوار الحمراء، وصكت أذنيه أجراس إنذار لم تتوقف.. ولكنه ارتدى مسوح المناضلين ورهبان الحقيقة والمبدأ.. واستمتع بممارسة مشاعر «الفارس» الذي يمتطي فرسه ويمتشق حسامه ويندفع إلى ساحة النزال مستعدًا للاستشهاد!.

في ذلك الصباح أبلغوه بأن رئيس التحرير المهول ينتظره منذ ساعة ويلح في طلبه.. فأيقن أن هناك تابعًا من توابع الحملة الضارية التي يواصلها ضد أحد جبابرة السوق.. (آه.. لابد أن «الجرواني» قد حرك كل أركان حربه في كل دوائر السلطة والنفوذ.. فأمسكت تلك الأركان

عصا التأديب تؤرجحها في وجه رئيس تحريرنا الغلبان.. وهو يريد أن يلوح بها في وجهي.).

كان «بهيج مندور» بادي التوتر حقًا.. فهو لم يجلس إلى مكتبه بل عقد ذراعيه خلف ظهره موليًا وجهه شطر النافذة العريضة التي بدت من خلالها لوحة بانورامية كاملة للقاهرة.. وحين التفت على صوت دخوله.. كان وجهه يبدو مكفهرًا متعبًا..

- أخبرني بصراحة يا أشرف.. هل تريد هذا الكرسي؟

كان قد استند بذراع على كرسي المكتب واستخدم الآخر في إشعال سيجارة كانت في ركن فمه.. أقسم له أشرف بحرارة أنه لم يفكر لحظة في السعي للحلول محله.. بل لقد تحدث مع الرجل الأول في دائرة الصحافة وامتدح له بشدة أسلوب بهيج في إدارة الصحيفة متحمسًا لضرورة التجديد له.. انبسطت أسارير مندور قليلاً وجلس مشيرًا له أن «يرتاح» لماذا استدعيتني؟

- هناك دعوة.. بل هي في الحقيقة أمر.. عشاء في نادي العاصمة الليلة.. وعليك أن تكون هناك في العاشرة تمامًا!

آه.. هذا ما أقلقك إذن؟.. فنادي العاصمة زبائنه من الكبار أصحاب التصرف ومديري شئون المطبخ.. وهناك وضعت تفاصيل حركة التعيينات والتنقلات الصحفية الماضية؟

- من صاحب الدعوة يا أستاذنا؟
- يهمك جدًا أن تعرف؟

- أظن أنه من سلامة المنطق أن أعرف مضيفي! لاحت ابتسامة على وجه مندور حار هو في تفسيرها.. ثم جاء الصوت مليئًا بالايحاءات.. وضيفك رجل لا يرد له طلب ولا ترفض له دعوة؟.. إنه الجرواني شخصيًّا!

عاد إلى مكتبه واستسلم لمناقشة داخلية أدارها بينه وبين نفسه. كل الاحتمالات والمحاذير والهواجس التي يمكن أن تحيط بالدعوة. وكان جوهر الحيرة يدور حول عنصر المنطق. كيف يتقرب منه الرجل الذي يقود ضده هجمة شرسة لم ترحمه يومًا؟ إن الأقرب للمنطق أن يبحث رجل في قوة الجرواني عن وسيلة للعقاب والانتقام.. فما سببه له على مستوى الخسائر المادية والتشهير المعنوي لا يمكن أن يقابل بالتودد والتقرب إلا إذا..!

استغرقته فكرة أن هناك عرضًا سيقدم له! وأنهم بالقطع يريدون شراء قلمه ما هو الثمن يابن الأسطى كامل؟.. الثمن بالطبع لابد أن يتناسب مع الخطر.. وخطرك على مصالح الجرواني يتصاعد وينذر بأوخم العواقب.. إذن فسيكون الثمن مرتفعًا!.. ماذا تتوقع؟

كم صفرًا على يمين أي رقم سيعرضون؟.. هي لحظة مجدك قد اقتربت والمجد هنا على صورتين لك أن تختار بينهما.. هو في صورة مجد الثروة الطائلة التي تحقق بها كل أحلامك الموشاة بخيوط الذهب وتدفع بك إلى ضفاف الراحة والدعة وبلهنية العيش.. وفي الصورة الأخرى هي مجد الانتصار وتحقيق الذات وتبوؤ سدة رئاسة التحرير.. وربما رئاسة مجلس الإدارة بالإضافة.

خفقت دقات قلبه مع الصورة الأخيرة.. فهي بالطبع الصورة التي علقها على جدار أمانيه منذ بدأت خطواته على أرض الصحافة! ولكن.. كيف يمكن أن يتحقق اختياره في موعد الليلة؟.. سؤال عليه أن يجيب عليه بدقة.. وقد قضى بقية النهار في التفكير وحتى واتته الخطة.. وكانت بسيطة للغاية.. سيضع ذلك المسجل النحيف الذي لا يكاد يبلغ حجم القلم في جيب سترته.. ثم يذهب ويستمع إلى العرض.. وسيستمهلهم حتى يفكر.. وفي الصباح التالي سيذهب بالحديث المسجل إلى نيابة الأموال العامة حيث يعدون له خطة ضبط منشورة في كل الصحف.. وتفاصيل مجده الصحفي تزغرد على كل لسان! وسيحتفل بانتصاره المؤزر وغريمه الجرواني ملقي في الزنزانة!

وفي العاشرة تمامًا كان في ذلك المكان المبهر الذي يجمع بين الأناقة الكلاسيكية للنوادي «الخاصة» وبين الرهبة التي تلوح كتيار بارد يتسرب إلى أرجاء المكان مع ذلك المطر الخفيف الذي لا يمكنك أن تتبين فيه عطرًا

حقيقيًّا منتجًا من مجموع عطور الرجال والنساء المتطايرة مع الهمسات والضحكات الخافتة أو أن يكون عطرًا ثابتًا يعبق به المكان مختلطًا بروائح الطباق المتسربة من صالون المدخنين.. وحين قاده أحد السقاة إلى صالة الطعام وتقدمه إلى المائدة الكبيرة التي تجمع حولها أكثر من عشرين مدعوًا يتوسطهم «خضر الجرواني» نفسه بمظهره الخادع الذي يصلح لأستاذ جامعي أو جراح كبير أو سفير ويخالف تمامًا تلك الصورة التي يضع فيها الناس ما رسخ في أذهانهم من صور الكاريكاتير التي ترسم لأصحاب الثروات والمشروعات الكبيرة ملامح البدانة والترهل وجحوظ العينين. أما هذا الرجل الذي لا يكاد يجاوز عقده الخامس بسنوات قليلة.. مفرود القامة.. ذو ملامح منحوتة وفك عريض وصلع خفيف بمقدمة رأسه الذي ينزلق إلى أنف كبير يحمل نظارة طبية بلا إطار.. هو كما أشارت إليه صور كثيرة نشرت في موضوعات اقتصادية واجتماعية؛ ولكنه يبدو على حقيقته أصغر سنًا وأكثر شبابًا..

# سوناتا لتشرين (٧)

في الضوء الخافت الذي يتوزع في جنبات القاعة. وقد خلت تقريبًا إلا منهما.. بدت له ملامحها أكثر حدة؛ مما بدت عليه حين قطعت مخروط الضوء الساقط على مدخل القاعة. وربما تعمدت أن تجلس قبالته في وضع يتيح للظلال المعتمة أن تضفي على وجهها بعضًا من غموض غير مبرر. وقد حاول أن يثبت نظرته إليها غير عابئ بما قد يبدو تصرفًا وقحًا.. مفضلاً أن يبدأ هو بالهجوم.

- لماذا يصرون على خفوت الضوء في مثل هذه الأماكن؟ المفروض أنها نواد للقاعات ورجال الأعمال وأهل السياسة والاجتماعات غير الرسمية للدبلوماسيين وإضرابهم.. لكنهم فيما يبدو قد آثروا أن يتيحوا الفرصة للقاءات العشاق أيضًا!

لم ترد.. اكتفت بابتسامة مجاملة تشى بالاستخفاف أكثر مما تحمل من التواطؤ علي فهم التلميح «الغزلي» الكامن.. وبادلته نظرته المقتحمة بمثلها.

– أرجو أن نتفاهم بسرعة وسهولة!
– حول أي شيء؟
– كلفني «المستر» الجرواني بأن أنقل إليك رغبته في أن تصبحا صديقين.. وأن.. بدافع متعجل وربما متهور وجد نفسه يقاطعها.. العرض يا آنسة.. ابدئي مباشرة بالعرض..

أربكها واستطاع لثوان قليلة أن يرى انتصاره في عينيها المفعمتين بدهشة البغتة.. وحين تمالكت نفسها، وقد حدث هذا سريعًا، وتساءلت عن أي عرض يتحدث كان مستعدًا لإكمال هجومه.

– قبل أن أجيبك أرجو أن لا تناديني مرة أخرى بـ «مستر» . يمكنك أن تستخدمي كلمات عربية كالسيد أو الأستاذ أو حتى «أفندي» .. أعرف أن عودة البلد لعصر «التجارة» وجذب الاستثمار والتعامل «السياحي» مع «الآخر» القادم من بلاد العالم الأول والثاني قد فرضت على الألسنة «لغة» مختلفة أراها أنا شخصيًا أشبه ما تكون بلغة «الترجمانات» .. ولا أحبها!
– لم تكن حضرتك في حاجة لكل هذه المقدمة.. تكفي الجملة الأولي التي ذكرتها..

كانت لهجتها مفعمة برنين الانتقام.. ولكنها ما لبثت في أداء مهني بارع أن ابتسمت وأمسكت بخيط الكلام.

- ليس لدينا عرض محدد نقدمه لحضرتك.. لكننا نفتح كل الاحتمالات.. ومادمت تتبع الأسلوب المباشر والصريح.. وهو ما أعجب به وأقدره، فدعني أحدثك عن الحملة الشرسة التي تشنها على مصالح ومشروعات المهندس «فرماوي» في تحقيقاتك ومقالاتك التي جاوزت المنطق في الحقيقة.. والمشكلة الحقيقية التي تواجهنا معًا أنها تنشر في صحيفة واسعة الانتشار لها اسمها ورصيدها لدى الآلاف من قرائها.. وهو أمر لا نستطيع أن نتجاهله أو نتحمله.. وأنا هنا الآن لأسألك سؤالاً محددًا.

ما هو المطلوب لكي تتوقف هذه الحملة فورًا؟

لم تعد هناك ابتسامة ترتسم على وجهه وتغيرت طبقة صوته تمامًا..

- سأفترض حسن النية في سؤالك لأن الاحتمال الآخر له رد آخر.. وسأقبل ظاهر الكلام وأعتبر أنكم تريدون فعلاً أن تعرفوا الوسيلة إلى إيقاف الحملة التي وصفتها بأنها تجاوزت المنطق، وأفترض أيضًا أنها تسبب لكم خسائر موجعة تريدون أن تضعوا لها حدًا.. حسنًا!.. الأمر الوحيد الذي يدفعني للتوقف عن متابعة أنشطتكم بل ويجعلني أفكر جديًا في الاعتذار وإرجاء المديح والثناء على جهود المهندس الجرواني في بناء الاقتصاد الوطني ودعمه.. هو أن تبدأ مجموعة شركات «الباشمهندس» (أظن أن هذا اللقب هو

ما يناديه به كل المحيطين به.. أليس كذلك!) في تنفيذ إجراءات أساسية لا أعتقد أنها تروق لكم..

– أكمل حديثك يا أستاذ أشرف.. أخبرنا عن ماهية هذه الإجراءات ودع لنا بعدها أن نقرر هل تروق لنا أم لا!.

عليكم أولاً أن تعيدوا العمال العشرين المفصولين من مصنع الكيماويات البديلة في العاشر.. وصرف رواتبهم عن الشهور التي مضت عقب فصلهم وحتى الآن! وعليكم أن تقدموا للنيابة العامة ما سبق لكم أن أخفيتم من أدلة لتتم إدانة الريس «عبد المنصف» الذي نكلتم به وشردتم أسرته.. ثالثًا: اتخاذ الإجراءات التابعة أو الوسيطة في دول أخرى بالمنطقة، تتولى التصرف في الأموال الهائلة المطلوب تبييضها وغسلها وتعد مجموعتكم أهم شريك لهم هنا.. في هذا البلد..

.. كان التورد في وجنتيها يتحول بالتدريج إلى امتقاع.. تحول إلى شحوب لا يمكن القطع بسببه.. وهل كان ناتجا عن خوف أو غضب.. ومن غور سحيق جاء صوتها.

– أنت تعرف أن ما تطلبه محال.. ولن نعترف بمزاعم الآخرين من أجل أن نرضيك..

رمقها ساخرًا: تتكلمين بضمير الجمع!

– أنا موظفة!

- هل يمكنني أن أعرف طبيعة عملك بالتحديد؟
- ليس لعملي إطار محدد.. وإن أردت لك أن تعتبرني مساعدة لرئيس مجلس الإدارة!
- منصب خطير! ومسئولياته عديدة ومتنوعة!

رمقته بنظرة حادة وتوردت وجنتاها للحظة! شعرت بما في كلماته من تلميح غير مريح..

- أظن أن مسئوليات عملي ليست من شأن أحد غيري.. وبالتأكيد ليست موضوعًا مطروحًا في حديثنا الآن!
- أعتقد أن حديثنا قد انتهى.. سألتني سؤالاً محددًا وأجبتك إجابة محددة.. سعيد بمعرفتك يا آنسة.. أو «هل أقول سيدتي»؟

نهض عن كرسيه وهو يحييها منصرفًا بإيماءة من رأسه..
همست بصوت مبحوح.. آنسة..
كان قد غاب عن ناظريها.. وكان عليها أن تعود لمخدومها..

وترك هو المكان وقد غمره انفعال البطولة! أجل.. فهي بطولة بلا شك أن ينجو من الفخ الذي نصب له!

(وما أدراك أنه كان فخًا.. وما الذي جعلك تفكر بهذا المنطق «البوليسي» الذي يفترض أن الجرواني قد نصب لك شركًا يعرض عليك فيه رشوة بمبلغ طائل، ويسجل لك في الوقت نفسه وقائع المفاوضات

على شريط صوتي مسجل تخبئه الغادة التي تساعده في حقيبة يدها التي وضعتها على المائدة بينهما؟.. ألا يمكن أن يكونوا قد أعدوا لك عرضًا حقيقيًّا يذهلك؟.. لماذا لم تحاول على الأقل أن تعرف تفاصيله؟).

# سوناتا لتشرين (٨)

هل خالجه الإحساس بالندم وهو يسير على قدميه بجوار سور الكورنيش رافضًا أن يستقل سيارة الجريدة التي أقلته.. أريد أن أمشي.. وأمشي حتى تبرد أفكاري.. وكلما سرت خطوة تأكد لي أنني لم أخطئ؛ بل فعلت الصواب. هؤلاء الناس لابد أن يعرفوا أن هناك أقلامًا لا ثمن لها ولا تعرض في الأسواق.. وأن أموالهم تعجز عن شراء ضمير صحفي مثله اختار منذ خطا أول خطواته في بلاط صاحبة الجلالة أن يتبع الطريق الأصعب والأشق ليكون «صحافيًّا» رساليًّا، وإن ظل فقيرًا لا يستطيع شراء سيارة خاصة محترمة بعدما يقرب من عشرين عامًا في ممارسة المهنة.. واكتفى بتلك العربة الصغيرة التي يوفر جهدها لمشاوير الفسحة الأسبوعية التي تصحبه فيها «شيرين» .. آه.. شيرين نفسها حكاية أخرى.

قفزت حكاية شيرين بكل مرارتها إلى ذهنه في مشوار الكورنيش.

تباعدت اتصالاتها الهاتفية في السنة الأخيرة.. ومنذ عيد ميلاده الذي مر عليه الآن سبعة أشهر كاملة لم تتصل.. وكانت آخر جملة سمعها في الهاتف على لسانها.

- ربنا يعمل اللي فيه الخير يا أشرف.. مش عارفة حاقدر أكلمك تاني ولا لأ! لحظتها عصر التوجس قلبه.. وها قد عاوده الحنين.. والخوف.. والإحساس بالفقد وترقرقت في مآقيه غلالة دمع توشك أن تنفرط.

انتهت جولة السير والتفكير وأحس برغبة ملحة في الاسترخاء.. في الهجوع إلى «البيت» وبات عليه أن يستعرض الخيارات المتاحة كما يحدث دائمًا في الليالي التي تتوتر فيها أعصابه أو يراوده سؤال تصعب الإجابة عنه.. فهناك شقته «الاستديو» الكائنة في آخر أدوار تلك البناية الشاهقة في المعادي التي ترى النيل تلصصًا من وراء مجموعة البنايات القصيرة المطلة مباشرة على الكورنيش - وعيبها بعدها عن قلب المدينة - ثم هناك شقة حماته؛ حيث منحت له هو و «عزة» غرفة كبيرة منفصلة بباب خاص على الردهة (نظام المباني المنتمية لطراز الثلاثينيات في القرن العشرين) وتقع في وسط المدينة قرب باب الشعرية وعيبها يكمن في العلاقة المتردية بينه وبين عزة وأسرتها حتى تحولا إلى غريبين لا يلتقيان إلا لمامًا.. آخر مرة كانت منذ شهر.. جلس كل منهما على الطرف المقابل للآخر من الفراش.. وكانت المحاولة فاشلة لم تسفر إلا عن خيبة تعسة.. وظلا

صامتين لا يجد أحدهما ما يقوله للآخر.. حتى جف العرق وخلف على الجبين ذرات دقيقة من إفراز ملحي.. وجاء صوتها أخيرًا مكدودًا يائسًا كأنه استنفد طاقته في سفرة طويلة.. طلقني.. وكفانا هربًا من الواقع..

وبدون مبرر كاف انطلق ليلتها يحاضرها. أنت من صنع هذا الواقع بضعفك وانقيادك وذوبان شخصيتك في شخصية أمك ولقد حاولت كثيرًا معك ومعها حتى يئست وانتهيت إلى نتيجة قاطعة أنك وأمك مكتفيتان إحداكما بالأخرى ولستما في حاجة إلى ثالث بينكما.. ولكني لن أسارع بتلبية طلبك.. سأعطيك مهلة للتفكير خاصة أن هناك طفلاً بيننا.. خذي شهرًا وإذا قررت بعده أنك مصرة على الطلاق كان بها! وخرج ليلتها يسترجع كلمات قالها أستاذه رئيس التحرير المتقاعد حين زاره يدعوه لحفل زواجه أنت واحد من ثلاثة لا يجوز لهم الزواج.. الصحفي.. والفنان.. ورجل السياسة! وفهم المعنى بلا احتياج للشرح.. فهؤلاء الذين ربطوا حياتهم بحبال الصحافة أو الفن أو السياسة لا يمكن أن يكونوا أزواجًا ناجحين لأن ولاءهم الحقيقي لما ارتبطوا به ولن يرجحوا عليه حبًا آخر!

إذن فلم يعد أمامه غير الاختيار الأخير.. حجرته القديمة في بيت الأسرة.. حجرة العشرة الطويلة والأيام الخوالي وليالي السهر في مايو على كرسي الخوص في «التراسينا» المطلة على بداية شارع الخليج. حيث ترتفع

جهة الشرق فوق هامات البنايات القديمة ربوة المقطم ومآذن مسجد محمد علي في قلعة صلاح الدين إلى يمينها..

أغمض عينيه على صور «الحاجة» مثل كل مرة وراحت تهدهده مستدعية سنوات الطفولة والصبا تغوص به في وسادة الكرى الناعمة.. لتمسك برأسه في رفق وتريحها على المسند القطني للكنبة «الاستامبولي» التي شهدت مولده ومولد الأشقاء والشقيقات! لكنه يفيق ويجد طريقه إلى الحمام (ما زالت ست الحبايب تحتفظ له بمخزون من الملابس الداخلية والخارجية يجده كلما احتاج إليه).

والدش القديم نفسه بماسورته المنتصبة وطاسته العريضة (رفضت باستمرار كل عروض تحديث الحمام) والبانيو القديم القائم على أربعة بصنابيره التي «جنزرت» يقف في وسطه ويفتح الدش.. مياه سخية غزيرة تنهمر بلا انقطاع.. باردة في شهور الصيف دافئة في الشتاء.. ولم يكن أحد من أصدقائه يصدق هذه المعجزة.. واحد فقط أكد أن هذا يحدث في البيوت «المسكونة» .

- أم أشرف! من داخل الحمام ناداها.. ومن داخل المطبخ المجاور ردت:
- نعم يا أشرف!.. سألها عن آخر عفريت شاهدته في الشقة.. فعنفته ضاحكة ونبهته إلى أنه لا يجوز أن يتناول سيرة «بسم الله الرحمن الرحيم» وهو عار في الحمام وإلا أصابه الأذى وهو ما

زال يفرك شعر رأسه بالمنشفة وقف في «التراسينا» يشاهد المنظر القديم كأنه لوحة معلقة على جدار مقابل منذ زمن طويل لا فرق.. قبة جامع محمد على فقط أعادوا طلاءها بلون فضي!.. وهتف مخاطبًا «الحاجة أم أشرف» أتعرفين أن مسجد محمد علي في القلعة أحلى وأجمل من المسجد الأصلي الذي استنسخوه في استانبول.. جامع السلطان محمد الثاني أم تراه السلطان أحمد؟! رد عليه من حجرته أخوه عماد زاعمًا أن مسجد القلعة هو الأصل فسخف ادعاءه وطلب منه أن يراجع معلوماته.. وانسحبت أم أشرف تعد له لقمة العشاء.

- تناولت عشائي يا أمي.. تعالي.. اجلسي بجواري واسمعيني.
- لعلك تقص عليَّ حدوتة قبل النوم.. تضاحكت ولكنها أحست بالجدية في قسمات وجهه.. فأصغت إليه وهي تتمتم بتعليق معتاد يلوم البخت العاثر الذي ورطه في زيجة فاشلة لم تكن له.. الليلة غريبة يا أم أشرف! كنت على شفا خطوة من انتصار كبير أو هزيمة ماحقة.. ولكني أضعت فرصة الاختيار برعونتي حين أغرتنى حماقة بطولة زائفة..



# سوناتا لتشرين (٩)

متى حدث الأمر؟ أكان في نفس اليوم؟ أم في يوم مشابه عرض له منذ سنوات؟..

لقد استيقظ على صوت يؤذن للفجر في المسجد القريب.. واكتشف بعد دقائق أن حديث الأمس كان قديمًا، وأنه وحده في الشقة التي أوصدت بعد وفاة الأم بأسابيع قليلة، وظلت طوال السنوات التالية مغلقة وتوزعت مفاتيحها بينه وبين أشقائه وتركوا مفتاحًا مع خادمة الأسرة العجوز تفتحها مرة كل شهر لتقوم بتنظيفها وتهويتها!.. لكني نمت متوسدًا حنانك كالعادة.. وعطر الياسمين الذي كنت تفضلين بقى في أنفاسي ولن يبرح طوال يومي.. بجوار ضريح الطاهرة أم هاشم أخذته غفوة أخرى لم يفق منها إلا بعد سطوع الشمس حين أدرك أنه لابد أن يغادر زمنًا لم يعد له..

في جيبه أحس بدغدغة ذبذبات المحمول.. لا يذكر أنه حوله على التنبيه الصامت ووضعه في جيبه حين كان في المسجد ونسيه.. أخرجه ونظر إلى شاشته فوجد رقمًا لا يعرفه وفكر لثوان هل يهمله خاصة أنه لا يحب الحديث أثناء قيادته للسيارة أو يطاوع فضوله ليعرف من الذي يطلبه بهذا القدر من الإلحاح..

– يقولون إن صوتي في التليفون يطابق صوتي العادي مطابقة كاملة..
– أعتقد أنهم على حق.. وقد عرفتك لأول وهلة.. وأنا الآن في حالة دهشة مختلطة بالزهو.. لا أعرف لماذا يعتادون الاتصال بي بعد لقاء الأمس الفاشل وفي ذات الوقت يخالجنى احتمال أن تكونى قد طلبتني الآن بدافع شخصي لا صلة له بأعمال الباشا الجرواني!
– ما رأيك في أن تكون هذه هي الحقيقة؟
– إذا كانت حقيقة مجردة عن السخرية فستزداد دهشتي وتتضاعف سعادتي!
– أظن أننا قد وصلنا لنقطة لا يكفي الهاتف للحديث بعدها!

اتفقا أن يتلاقيا مساء اليوم التالي، وبعد أن أنهي المكالمة أحس بخدر الاستغراب يسري في أعطافه: كان الأمر كالحلم الذي لا منطق فيه ولا اتساق.. وتذكر أنه حتى هذه اللحظة لم يسألها عن اسمها و لم تذكره هي له.. دابه أن تتحرك نحوه بهذه السرعة.. حتى لو كانت تؤدي وظيفتها وتنفذ تعليمات «الباشا» فالفطنة تحتم هنا أن تتركه فترة يطول فيها انتظاره،

ويقلقه ألا تكون هناك مبادرات جديدة يقدم من خلالها عرضًا آخر.. ولا يعقل أن تكون قد روت ما حدث بينهما في لقاء الأمس للجرواني فبادرها أمرًا بمواصلة الاتصال والإلحاح في العرض! إذن.. فأي تفسير مقنع؟

هو لا يستطيع أن يصدق ما يوحي به غروره، ولا تخالجه الأوهام عن الغادة الحسناء التي سقطت صريعة هواه من أول نظرة! خاصة أنها فتاة من النوع الذي يختاره أمثال الجرواني ليكون واجهة فاتنة براقة تؤثر بالقطع في الزبائن والعملاء والشركاء، وتكون عادة من نفس النوعية التي تكتمل لها مواصفات ملكات الجمال، ونجمات الفن، وعارضات الأزياء! ولن تعدم الواحدة منهن صفوفًا من الشباب المتيم القادر!

حمل هواجسه معه إلى مكتبه وفاجأ نفسه بضبط يده تخرج المرآة الصغيرة من «المدرج» وتشرعها أمام وجهه يتأمل فيها ملامحه الخشنة وتقاسيمه الكبيرة التي لم تجعله يومًا يعد من الرجال «الحلوين» .. (أي شيء في هذا الوجه يمكن أن يأسر مشاعر امرأة في أول لقاء؟..) ولم يتح له جرس التليفون الداخلي أن يسترسل في حواره المنفرد مع نفسه.. كان رئيس التحرير يطلبه في إلحاح!

— ماذا فعلت في لقاء الأمس؟! الرجل ثائر ويقول إنك تصرفت معه بفظاظة وغادرت مكان اللقاء، وبطريقة مهينة أحرجته أمام كل ضيوفه؟ ماذا حدث بالضبط يا أستاذ؟

راح يسرد عليه ما حدث بالتفصيل.. وكان لسانه يتحرك ورأسه يشتعل: دهشة كالحريق تتقاطع فيها الأسئلة الحائرة كأنها دقات طبول في معزوفة إفريقية!.. الجرواني ثائر يهدد، ويتوعد! إذن فليس هو بالقطع من أمرها بمكالمته اليوم فضلاً عن مواعدتك غدًا! فهل يؤكد هذا زعمها بأنها طلبته بواعز شخصي لا علاقة له بالعمل الذي تؤديه؟ وإذا كان الأمر كما زعمت فما هو هدفها «الشخصي»! ماذا يمكن أن يكون لديه وتريده هي بشدة؟

أفاق من شروده مع آخر جملة في روايته.. وكان الرجل يحملق فيه مستنكرًا، وهو يضرب كفًا بكف!

- يا أخي بعيدًا عن كل ما يتصل بالأصول.. كيف يتعامل صحفي مثقف مثلك مع مصادر بهذه الطريقة المستفزة؟ اضطر أن يستمع إلى إحدى مطولات صحفي منتهي الصلاحية رهن نفسه طوال نصف قرن لمحددات تقليدية لا تنفذ خارج الإطار، ولا تقرب مساحات المغامرة والجنوح إلى الإبحار في عباب الخطر! وكان الخطر في رأيه دائمًا أن يغضب منه «السادة»! والسادة في عالمه أصناف وأنواع لكنهم في كل الأحوال ما نحو الأمان بالرضا!.. وأشرف لم يسع يومًا لاكتساب الرضا والبُعد عن خطر افتقاده!.. واستفزه هذا الهلع الذي يتخلل كلمات الرجل.. فانبرى - ربما عن تهور - يهتف به مؤنبًا، وكأنه يعاقب طفلاً دون سن الإدراك:

- كف عن هزيانه فأنت لا ترى نفسك ولا تسمع كلماتك! كف عن استخذائك وعبوديتك.. ماذا يمكن أن ينالك من غضب الجرواني وأمثاله.. أم تراك لا تخشى العقاب ويفزعك فقط أن ينقطع حبل الرضا، وتنقطع معه العطايا والهدايا، وكل ما يطعم الفم حتى تستحي العين؟.. حافظ على ما بقي لك من ذكريات الصحفي النابه الذي كان.. وقدم استقالتك يا رجل..

ظن للحظات أن ما يقوله كان ضمن «مونولوج» داخلي لا يسمعه غيره.. لكن ما ران على وجه الرجل من شحوب وما تلاحقت به أنفاسه من كلمات مبتورة.. كان يشير إلى أن هناك دماءًا تنزف وبغزارة!



# سوناتا لتشرين (١٠)

في لحظة.. رأى الهيكل العظمي لإنسان! وكان عيناه تزودتا بقدرة أشعة «رونتجن» السينية على الاختراق.. هذا الرجل الجالس على قمة المؤسسة والذي كان يومًا أشبه بالأسطورة وكان مجرد ذكر اسمه يشيع القلق والتوجس لدى الجميع حتى أقرب المقربين.. يلتصق الآن بمقعد «العرش» ممصوصًا.. غائرًا.. تترهل سترته كأنها لم تكن له، وتغوص عيناه في فجوتين معتمتين حتى بات صعبًا على أشرف أن يلمح أو يستبين أي رد فعل على كلماته التي أنشبها في عنق الرجل القديم، حتى تخيل في لحظة أنه لم يقل شيئًا وأن سهامه الجارحة قد طاشت قبل أن يسدد قوسه.. لولا أن جاءت اللحظة التالية بصوت الرجل.. مبحوحًا كصراخ طير ذبيح..«تعجلت فأسواري ما زالت عالية.. ومنيعة.. وصمت دونما إضافة حتى ظن أشرف أنه قد أخذته الإغفاءة التي بدأت تعاوده خلال

العام الأخير.. وابتعد يريد الخروج من عرين الأسد المهيض.. وقبل أن يعبر الباب سمع العبارة».

«ستندم.. وسيقتلك الندم». أحس بالصوت يسقط داخله بصداه. ولكن كان موقنًا من سماعه.. والتف عائدًا بسمت غاضب نحو المكتب وقد قرر أن يقطع الشعرة الأخيرة.. لكنه وجد الرجل قد أغفي بالفعل!

زكمت أنفاسه رائحة الكيماويات العالقة في كل ممرات وحجرات المبنى الجديد الذي انتقلت إليه الجريدة.. وكانت الأسقف المنخفضة وأنوار النيون المنتشرة عبر مصادر مختفية تعطيه إحساسًا بأن المبنى لا يصلح لأن يكون مقرًا لبنك أكثر من كونه لصحيفة! وانتابه الحنين عابرًا إلى المبنى القديم الذي خطا فيه أولى خطواته منذ عشرين عامًا متدرجًا في رحلته.. خفقت في صدره ضربة ملتاعة حين تذكر أن رئيس التحرير الذي تركه غافيًا على مكتبه قدم له في مرات كثرة دعمًا له شأنه «أسرع حتى بدا أنه يجري وكان يهرب من تساؤل تداعى إثر الذكريات عن نذالته التي يعترف بها الآن في شجاعة مجانية لا قيمة لها.. وعند بوابة الجريدة أحس بالمحمول يرتجف في جيبه.. ولم يجد رقمًا على الشاشة.. فقط كلمة.. رقم خاص! Private number.

– أستاذ أشرف! مكتب صاحب المعالي معك! ومعاليه ينتتظرك بعد ساعة!

ثم أنهيت المكالمة دون أن يتمكن من النطق بحرف!.. تملكته وساوس كثيرة ولكنه نفضها سريعًا عن تفكيره لأنها لم تصادف منطقًا يبررها، وكان عليه أن يلبي الاستدعاء من فوره!.

كان قد التقى بصاحب المعالي كثيرًا في مؤتمرات واجتماعات وحفلات لا حصر لها. ولكنه لم يستطع أن يحبه! فما سمعه عن ماضيه وعن نفوذه وعن يده التي تطول كل بعيد وأصابعه المحشورة في بطون لا حصر لها.. لم يكن يشجع على الحب وإن دفع للخشية والحذر.. ولم يحاول أشرف أبدًا أن يفلت منه ما ينم عن مشاعره الحقيقية تجاه «معاليه» بل نجح – على ما يظن – في إقناعه بأنه ممن يعتمد عليهم.. كان يعلم عن يقين أن مفاتيح أبواب كثيرة رابضة في جيب هذا الرجل القصير ذي الجمجمة الذئبية!.. وأشرف كان يضع رهانه دائمًا في خانة التوازن.. ويثق في قدرته على إجادة اللعبة ذات الاتجاهين: أن يحسب على اتجاه المستقلين والشباب غير المنتمين للحزب، وعلى الاتجاه المضاد الذي لا يعارض ويلتزم بالحدود الموضوعة! وكان السير على السلك المشدود يتطلب مهارة الحواة ولاعبي الأكروبات، ويتطلب ثمنًا باهظًا اضطر لدفعه.. فقد خسر صداقات حقيقية صاحبت البدايات وأشرقت مع البكور.. ولم يربح في مقابلها إلا صداقات المهنة.

«كنت أعرف أنها ليست صداقات بقدر ما كانت علاقات تفرضها المهنة.. علاقات لا تزيد قيمتها عن قيمة المحارم الورقية «مناديل الكلينكس».. تؤدي كل علاقة مهمتها في مسح الغبار وتنظيف اليدين ثم

تلقى في سلة المهملات.. كنت أعرف يا طفلتي.. وأحسست بالخسارة الفاجعة كلما ابتعد عني واحد من رفاق البشارات القديمة.. وظللت ليلة بطولها أبكي كالثكالى حين قطعت علاقتي بسامر مكاوي.. سمعت عنه طبعًا، وتنظرين إليه باعتباره بطلاً ونموذجًا ومثلاً أعلى مثلك مثل كل أبناء جيلكم وأنتم محقون فقد كان كذلك بالفعلِ.. وكان صديقي! وكان لابد لي حينها من الابتعاد عنه فقد أصبحت ملكا لاختيار صارم لم يفلتني و لم أكن مستعدًا لأن أفلته..».

ومع نهاية رجعته الاعتراضية توصل إلى لحظة اللقاء! كان صاحب المعالي ينتظره بابتسامته العريضة المرحبة التي لا تخلو - خصوصًا عند ثنايا زاويتي الفم - من تعبير ساخر احتكر موقعًا لا يبرحه من فرط التكرار.

- أوحشتنا يا أستاذ! أين أنت؟..

تبادلا ذلك الحديث الروتيني المعتاد قبل أن يقفز منه «معاليه» إلى الهدف.. وكان أبعد من أي احتمال تخيله..

- نرى يا أشرف أن دروك قد قد اقترب لتنال الموقع الذي تستحقه! «الرجل عندكم» قد شاخ وركبته العلل سمعت أنه ينام على مكتبه!! لا.. لم يعد هذا مقبولاً ولابد من تجديد شباب «القيادات» كلها.. وأظنك توافقني على أن المرحلة المقبلة تحتاج إلى دماء جديدة تتدفق في شرايين صاحبة الجلالة.

تخدر رأس أشرف وأحس «بتنميل» جبهته وكاد يستسلم لطائف من

الإغماء يناوشه.. فبالرغم من أن احتمال الحلم كان يراوده كهدف لن يقعد دونه؛ إلا أنه ظل كامنًا في حنايا الأماني المؤجلة.. وها هو يباغته دون توقع.. ورغمًا عنه تشتت ذهنه وراء الاحتمالات الوشيكة.. حتى أنه لم يدرك كل ما قاله صاحب المعالي.. فقط حين نهض معاليه إيذانًا بانتهاء المقابلة.. مد يده يصافحه وهو يبلغه بلهجة عرضية..

- بالمناسبة!! اشتكى لي الجرواني منك.. لماذا تضايقه يا أخي؟.. ألا تعلم أنه من الأعمدة المهمة؟ وقبل أن يجيب ربت معاليه على كتفه برفق مصرًا على توصيله حتى باب المكتب.
- انساه يا أشرف وركز في المسئولية الجسيمة التي توشك أن تلقى على عاتقك!
- أربكه جيشان مشتهرة بموج متلاطم من الحيرة والإفاقة.. والدهشة.. وسؤال يأخذ بخناقه ملحًا ضاغطًا «ألهذا الحد تبلغ قوة الجرواني؟ وهل تصاعد نفوذه لدرجة أن يعرضوا عليه حلم حياته المهنية في الجلوس على كرسي رئيس التحرير مقابل أن يكف عن «مضايقته» وينهي حملته ضده؟

وهل هناك صلة من أي نوع وعلى أي بُعد بين حديث «صاحب المعالي» وتلويحه بالصفقة وبين معاودتها هي الاتصال به؟.. أم أن..

أبقى الاحتمال الآخر.. لسؤال مباشر بادرها به حين وافته في الموعد!!



# سوناتا لتشرين (١١)

وشت إيقاعات خطوها حين اقتربت بما لم يكن يتوقع.. فقد استقر في مجال الاحتمالات التي طاف بها خياله لليلة مسهدة كاملة أنها ستجيء مسلحة بكل ما يمكن أن يبهره، كان يعتقد جازمًا أنها تلعب دور رأس الحربة الذي تعتمد لإصابته ذلك الأسلوب الكلاسيكي الذي رآه في أفلام سينمائية كثيرة مصرية.. وأمريكية.. أسلوب تحديد الهدف والتركيز عليه بالإغراء الأنثوي.. فالمسألة قديمة حقًّا.. لذلك أطلق العنان لخياله يرسمها على النموذج الشائع غادة تتبدى في قمة بهائها وأوج فتنتها تمشي الهوينى في تؤدة ورشاقة الاعتداد بالنفس.. تنشر قبل حضورها عطرها المسكر وعبير أنوثتها الفواح.. وتهيأ تمامًا للهرب من مرمى القوس مصممًا على إفساد «المخطط» المنصوب له.

باخت كل التوقعات والتصورات حين جلست مكومة مهزومة.. وقد خلا وجهها من أي أثر لأي مسحوق أو لون وبدت عيناها – حين خلعت عنها نظارة الشمس – مقرحتين ذابلتين كأنما لم تكفا عن البكاء طوال ساعات.. بل كان هناك أثر يستبينه المدقق لمسارب الدمع الذي انحدر وجف.. شملتني رعدة المباغتة.. ومشاعر الخذلان التي خلفتها خيبة التوقعات وتهافت التحدي.. حتى عجزت عن العثور على سؤال يفسر أو يجيب ويزيل حالة الارتباك التي داهمتني.. ولكنها لم تتركني طويلاً لأمارس لعبة «التخمين».. انطوت الصفحة.. أو انتهى الشريط الحاكي.. ولم تعبأ صاحبتنا بهجمة النعاس المطلة مع نور الفجر.. بسرعة رفعت الشريط المنتهي ووضعت بدله..

– كنت قد قررت أن أعتذر لك على الهاتف الجوال.. ولكني في اللحظة الأخيرة تراجعت وجئت حتى لا تذهب بك الظنون بعيدًا فتتصور مثلاً أنني أمارس معك ألاعيب البنات..

– لم أكن لأظن أيًّا من هذا فدعك منه وفسري لي ما أراك عليه الآن؟.. ماذا حدث وجعلك على هذه الصورة البائسة؟ كل شيء فيك ينبئ بأنك تعرضت لمحنة..

عرف بعد أن استرسلت في الحكي الحقيقة وراء إصرارها على القدوم للقائه برغم عجزها النفسي عن التحمل.. أحس أنها تحتاج لصدر تبكي عليه.. وعيني رجل لا تعرفه ولا تخجل منه وكان هو فقط من عرض في

حياتها قريبًا: سأقول لك ما أظنني لابد أن أندم على بوحي به حتى آخر عمري..

كان الحكي مأساة قائمة بذاتها «رغم الصحافة والقرب فيها من مصادر الأخبار ومن خفايا الأسرار والفضائح التي عرف منها الكثير وسمع أكثر لم يتصور أبدًا أن العفن يمكن أن يزدهر ويتكاثر حتى يصبح كطحالب البحر التي تغطي كل صخور الشطآن الضحلة فأصاخ السمع وهو يكاد يشرق بلعاب لا يستطيع ابتلاعه ولا يستطيع أن يبصقه..

الجرواني الذي يخيف غيلان السوق ويرهب المسئولين في طبقة ما قبل «الكبار» ويحصن نفسه بشبكة هائلة من العلاقات المساندة والحياتية والذي تصل أصابعه الطويلة إلى أبعد نقاط الألم في أمعاء النافذين وأتباع النافذين! هذا الجرواني يبدو أضعف من جراء كلاب «الجريفون» أو «الشيان لو» أمام زوجته ن.ج ابنة ذلك الرجل الكبير صاحب السلطة المهولة الذي يصلح لأن يكون ندًا لآمون -حتب- الرابع مثلاً؛ إذ يتمتع بقداسة الفرعون وشراسته (هل أدرك الآن سبب ما حيره في حديث صاحب المعالي؟) لذا فهو لا يجرؤ على عصيان أوامرها ولا الاختلاف معها حتى لو كان هذا الاختلاف أمرًا واجبًا يدور حول تعهدات الزوجة المخلصة والغيرة الطبيعية للزوج المطعون..

- كانت نظرة الحزن والغضب المكبوت التي تشتعل في عينيه هي مفتاحه الذي ولج به أبوابي.. أشفقت وتعاطفت واعتقدت في

البداية أن الانصات إليه وهدهدة جروحه هي بعض من مسئولية عملي معه.. ثم اتسعت دائرة المسئولية لتضم حياته كلها.. لماذا تنظر لي بهذه الطريقة؟.. نعم.. أصبحت عشيقته.. وهذا أمر طبيعي في رأيك الذي أراه في تعبير عينيك! وهو أمر يثير الغيظ حقًّا.. ماذا تتوقعون من فتاة تعيش في بلاط الأمير الذي يغدق عليها بلا حساب؟.. ألا تعد واحدة من ملك يمينه؟.. لم تصمت؟ لم لا ترد؟ عمومًا لا يهمني رأيك ولا أعبأ به فأحكامك وأحكام صحيفتك وأحكام مجتمعك بأسره مؤسسة على النفاق والكذب الرخيص.. ولكن دعنا من هذا.. ماذا كنت أقول؟.. هل أستطيع أن أعود لهدوئي مرة ثانية؟..

- حاولي لو سمحت فأنا حقًّا أريد أن أعرف! ماذا بعد أن أصبحت ملك يمينه؟

أدهشته الثورة التي اشتعلت بها فجأة. إياك أن ترددها ثانية! أنا لست مملوكة.. لست عبدة لأحد، فأنا اخترت بكامل حريتي أن أكون له!

ارتجفت أصابعها بكوب الماء الذي انزلق وتحطم على الأرض.. وبعد أن أفرغ الساقي لها كوبًا آخر وانتهى من جمع أشلاء الزجاج المكسور، كانت قد هدأت واستردت تحكمها في انفعالها، آسفة جدًّا.. أنا خجلى للغاية وأرجوك أن تسامحني ولو تصورت المعاناة النفسية الرهيبة التي تخالجني وأنا أحكي فستنفعل.. وإلا فكيف يمكنني أن أبرر قبولي لتلك

المهمة الشاذة التي كلفني بها.. حين طلب مني أن ألقى شباكي حول الفتى الذي «تلقاه» الهائم وتهيم به علنا. وطلب ملحًا أن أبعده عنها ليستطيع تدراك الأمر ويحفظ ماء وجهه أمام الآخرين.. هل تصدق أنه بكى بين ذراعي يرجوني أن أخلصه من هذا الكابوس: أرجوك.. حتى لو اضطررت لإقامة علاقة معه! فأنا مضطر لحماية سمعة تلك الساقطة ولو بالرغم منها!.. و لم أستطع أن أرفض طلبه.. ورميت شباكي التي لم تبق ساكنة لوقت طويل و لم تلبث أن انتفضت تحمل صيدها.. وحين استتب لي الأمر كانت أبواب الجحيم قد فتحت على مصراعيها.. وبينما كنت أحرص في استماتة على إخفاء كل ما يحدث عن عيون الجميع.. فوجئت بما لم أصدقه و لم أفهم له منطقًا.. رأيت الجرواني يتعمد بكل وسيلة أن تصلها «الأقاويل».. وأن يلفت نظرها إلى «الانسجام» الواضح بيني وبين فتاها الشارد.. بل ورتب لها أخيرًا عملية الضبط والتلبس.. ووقعت الواقعة.



# سوناتا لتشرين (١٢)

تمامًا كما يحدث في أفلام السينما وحكايات النميمة الرخيصة حدث الأمر، تدخل المرأة الثرية لتضبط عشيقها الشاب في أحضان الفتاة العاملة في مكتب زوجها رجل الأعمال الشهير! وتنفجر الفضيحة على مرأي ومسمع الجميع، وتشهد «الجرسونيرة» مشهد الانسحاق المرير لكل معايير الكرامة وتفتت الغلاف الهش المسكر المحيط بالدواء المر، وفي حراسة رجالها جرت «الهانم» غريمتها من شعرها وعلى درج العمارة؛ حيث تجمع الجيران والفضوليون وبعض المارة في الشارع، وبصوت جهوري يدوي ويجلجل صداه راحت السيدة الفخمة تمزق كل مشاعر الأنفة واحترام الذات داخل الفتاة.. بينما وقف الفتى «الجيجولو» يعتذر لسيدته عن غلطته التي استدرجته إليها تلك «البنت» المغامرة و لم تكتمل فصول المأساة إلا في مكتب الجرواني الذي كان يعد بها الضربة القاضية!

اتهمها الرجل بأنها لم تجد أداء دورها وأفسدت الأمر كله ثم صارحها بأنه لن يستطيع الإبقاء عليها إلى جانبه بعد انفجار الفضيحة و لم يعد أمامها إلا الاختفاء.. ابعدي واختاري أي مكان لا يراك فيه أي إنسان له صلة بـ «الهانم» ..

– ما زلت تحرص على كرامتك؟ هه؟ ألا تخجل؟
– اخرسي! ونفذي ما أمليه عليك بحذافيره وإلا..

«إلا» التهديدية تلك كانت تعني أمورًا تعرفها جيدًا وسبق أن رأت نماذج منها تجمد الدم في العروق (هؤلاء ناس لا يعرفون الخطوط الفاصلة ولا المناطق الحرام، لا فرق عند أي منهم بين اصطياد طائر بالخرطوش وقتل إنسان بنفس الطلقة.. فلا الحياة الآدمية ولا معاني الشرف تعني لديهم شيئًا).

– إذن فقد فصلك!
– لم يفعل حتى الآن! سينتظر إلى أن يتأكد من «خلو طرفي»!
– مسألة إخلاء الطرف هذه لا تستغرق أكثر من ساعات!
– طرفي ليس مشتبكًا بأموال أحفظها في عهدتي فقط ولا في مجرد إداريات أشرف عليها وأمسك بخيوطها.. فهناك ما هو أخطر!! هل تعرف أن أسرار صفقاته وتعاملاته موجودة جميعها في حوزتي؟.. وهل تعلم أنها كلها موثقة في كمبيوتر «اللاب توب» الشخصي الذي أملكه؟ إن القضايا التي أثرتها في حملاتك الصحفية الأخيرة والتي أزعجته وجعلته يفكر في كل الوسائل التي

تمكنه من إسكاتك ومنها وضعي في طريقك ومحاولة استمالتك..
كلها ترقد في أحضان الجهاز نائمة وفيها كل المعلومات والأدلة
والمعاملات والعقود السرية.

أحس بالدماء تتحرك في شرايينه لا يعلم هل تصعد إلى رأسه أم تنسحب
إلى قدميه وكان هناك نوع من الدوار يتماوج في الخدر الذي أثلج جبينه،
وراوده إحساس مربك بأنه على بُعد خطوة من نقطة تحول فاصلة في
حياته المهنية كلها، وأنه على وشك تحقيق انتصاره الكاسح المؤزر.. انتبه
لحظة حين سمعها تسأله هل تحب نقلها لك على أقراص مدمجة CD
الفرصة مواتية الآن لأنه لن يتركني أنفرد بها طويلاً. وسيطلبها حالاً؛ بل
أنا لا أستبعد أن يكون رجاله الآن في مسكني وفي مكتبي!
– إذن أسرعي!

خرجت منه العبارة في لهفة الصرخة وهو يكاد يجذبها من جلستها
لينهضها.. وكما لو كانت تتوقع لهفته فصعدته بعينيها الذابلتين وكأنها
تعاتبه.. وماذا سأستفيد؟ لكنه لم يجد ما يغريها! هزكتفيه وهو يؤكد لها
أنها ستثأر لكرامتها الجريحة وتؤدي «للبلد» خدمة جليلة ولن يتوانى هو
شخصيًا عن الإشادة بدورها، ولابد أن تكون «بطلة» في نظر الرأي العام
كله!.. نهضت في بطء وهي تلملم أشياءها.
– لا تعنيني مسألة البطولة هذه! وحكاية الثأر تهمني بالطبع لكنني
أيضًا أريد أن أستفيد ماديًا!

- اسمعيني جيدًا الصحيفة لن تدفع لك مليمًا واحدًا، فليس في لوائحها عقد صفقات مع المصادر.. لكنني أستطيع أن أعطيك كل مدخراتي الشخصية.. ورصيدي في البنك يبلغ ثمانية عشر ألفًا.. تحت أمرك!

رمقته بنظرة كابية خالطتها للحظة خاطفة برقة ابتسامة لم تستقر.. ثم همست «شحات»! احتفظ برصيدك المحترم واهنأ به «.. واستدارت مبتعدة.. لكنه جرى وراؤها فلم يتحمل فكرة أن يفقد الفرصة بهذه البساطة وراح يلاحقها ويتوسل إليها.. واستدارت إليه بوجه تملؤه الدهشة.. ولكنني سأعد لك الأقراص المدمجة وستكون لديك صباح الغد.. مجانًا فلا تتوسل ولا ترجوني» ..

- ما رأيك في أن آتي معك؟.. آسف لا تسيئي فهم غرضي.. أريد أن أحميك.. أو.. عفوًا.. سأقترح عليك أن آتي إليك ومعي مجموعة من فريق للكاراتيه يدربهم صديق لي.. ونسهر جميعًا إلى جوارك حتى..

قاطعت برفق صارم الحسم: لن يكون معي سواي.. وأنا أعرف كيف أحمي نفسي.. ووجود أي شخص معي لن يساعدني بل ربما أفسد الأمر تمامًا!

ولم يجد فائدة من الإلحاح عليها، وتركها على موعد هاتف في صباح اليوم التالي..

لم ينتظر طوال عمره صباحًا مثلما انتظر هذا الصباح.. وخلال العقود الأربعة التي عاشها تمنى كثيرًا وحلم بسعادات وأفراح وانتصارات تحدث له وسهر لياليه بجوار أمانيه يهدهد أحلامه ويغازلها لكن ليس كهذه الليلة.. ولأنه كان يعرف أنه لن ينام فقد انطلق يسير على غير هدى وركن سيارته أخيرًا قرب ميدان الحسين.. ودخل خان الخليلي وتجول كالسياح وكانت عادة قديمة لازمته من أيام الدراسة الجامعية.. ليلة كل امتحان يتوجه إلى كنيسة سانت تريزا في شبرا ليوقد لها شمعة ثم يهرع إلى الحسين ويقضي ساعات في رحابه حتى تقترب ساعات الفجر «أربع ساعات تكفي لينام وينهض بعدها كالحصان وسط دعوات الحاجة وهي تطوف بالمبخرة أرجاء حجرته وتصر على رقيته..» فلم يكرر العادة الغابرة؟ أتراه يشعر بأنه على وشك الدخول في امتحانه الأكبر؟.. استند رأسه إلى قائم سريره الخشبي القديم في بيت السيدة؛ حيث قرر أن يمضي ليلته – وطاب له أن يعيش مع حلمه المعلق بأصابع فتاة الجرواني.. وتخيل الصحيفة وهي تصدر بالمانشيتات الهائلة «نحن نزيح الستار بالوثائق والأدلة الدامغة.. أسطورة الجرواني تتحطم على صخرة الحقيقة.. نحن ندين بالبرهان الساطع أكبر أباطرة الفساد في مصر..» لون الحلم مرئيات الخيال.. ثم تركه لينام.



# سوناتا تشرين (١٣)

طالما رأيت في نومي مصارع أحلامي حين تتحقق بسهولة وسرعة الضوء وتتعري فجاجتها في عمق الوعي، مع ذلك الإدراك الهامشي بوقتية وخداع الحلم لينتابني من قبل مبارحة النوم نوع من الإحساس الثقيل بالخذلان، وليلتها قضيت ساعات نومي القصيرة مع أحلامي متشابكة قابلت فيها كثيرين كنت قد نسيتهم وآخرين لم أنتبه لهم يومًا، ثم زارتني فجأة «عطيات» خادمة أسرتنا القديمة وعاملتني في الحلم بحميمية الأزواج؛ وكان هو الحلم الأخير الذي أيقظني لأرى نور شمس ظهرية حارقة يضرب وجهي وينفذ من جفوني لأهب جالسًا وأنا أنظر في ساعة يدي وأجدها تشير إلى الحادية عشرة؛ فأجرى إلى الحمام لاعنًا استسلامي لنوم الضحى! امتدت أصابعها لمفتاح الإيقاف في المسجل، وكانت مرهقة! فاستغراقها مع حكاية أشرف عفيفي التي يرويها بصوته الخشن المميز قد أطاح في وقت قياسي بكل مفردات الأيام المتسقة المتشابهة

والمشنوقة بأنشوطة الاعتياد والرتابة، وها قد أصبحت لا تتعرف على ملامح الوقت، وانتبهت إلى رسالة بعثها فتاها على المحمول «كلميني وإلا حضرت إلى بيتك وشكوتك لأونكل و«طانط» وكل من في البيت» ابتسمت لسخافة الفكرة وقالت هامسة لنفسها وكأنها ترد عليه «أكبر بقى!» ومع ذلك طلبته وفي جمل متقطعة لا تخلو من رنة تأنيب أخبرته بأنها مشغولة بعمل إذا تفرغت على الإطلاق: أهو صاحبك العجوز الذي لقيناه في المؤتمر وأفسد علينا مشوار الإسكندرية؟ أحنقتها الكلمات وأحست بإهانة بالغة في لهجته؛ فانفجرت توبخه بحدة وتطالبه بالكف عن مهاتفتها أو السؤال عنها ليكن هو أو غيره.. المهم ألا تكون أنت!

وأغلقت الهاتف وقذفت به حتى ارتطم بالحائط و لم تعن بالاطمئنان على حالته وراحت تردد لنفسها «في داهية»واختفت الكسرة التي كانت تثقل جفنيها، و لم تعد في حاجة للنوم فنهضت ودخلت الحمام لتستسلم لدغدغة مياه «الدش» طويلاً، وخطر في بالها وهي تنصت لهسيس المياه تغمرها وتتدافع حباتها على أطراف أنفها وداخل أذنيها «أنه» ربما يكون الآن مندمجًا في الحكي وهي لا تسمع، خالجها وسواس ملح بأنها لم تغلق المسجل؛ بل خفضت صوته فقط وأنه يدور الآن، سيطر عليها الهاجس فهرعت عائدة إلى غرفتها وراجعت الكاسيت لتكتشف أنه مغلق فتتنهد ارتياحًا وتدير مفتاح التشغيل، وأتاها صوته يحكي كيف ذهب إلى الجريدة لينهي بعض المتعلقات متشاغلاً بها عن التوترات التي تعصف به وتراوغه في تساؤلات محمومة: هل ستنجح وتأتيه بالأقراص

المدمجة؟ وكان احتمال فشلها يصيبه بضربة موجعة في بطنه فراح يهرب من الاحتمالات الموجعة بترتيب الحماية الأمنية للفتاة من يدري؟ أليس محتملاً أن تكون مطاردة وأن يكون الجرواني قد أطلق خلفها كلابه بعد اكتشافه خيانتها له؟.. من المؤكد أن يفعل ذلك!.. وأسرع يتفق مع ابن خالته «شفيق» ليجهز له مجموعة مؤقتة من الحراس الشخصيين Body Guards ليتابعوه عن كثب حين يذهب للقائها في الموعد ويمكنهم التدخل للحماية وقت اللزوم.

كان الموعد في الثامنة بعد الغروب واختاروا له ذلك المنتجع البعيد في طريق سقارة، وكان هناك في السابعة والنصف ينتظرها وعيناه مسمرتان على الممشى المظلل المؤدي للمدخل.. وحين رآها لم يصدق؛ فقد جاءت مبكرة عن الموعد إذ هبطت من سيارة التاكسي أمام الممشى وهرعت بخطوات متسارعة وقد علقت حقيبة يدها على كتفها وأمسكتها بيدها في حركة احتياط مدهشة، وعند منتصف الممشى التفتت خلفها، ثم أسرعت إلى أحد حراس المدخل تتحدث معه بسرعة ملهوفة وتخرج لفافة من حقيبتها تضعها في يده، ثم تستدير من حيث أتت محاولة أن تصل إلى سيارة التاكسي التي لم تبرح بعد وربما كانت تنتظرها، وقبل أن تبلغها بأمتار قليلة اقتحمت المكان سيارة هائلة من نوع معلق الحركة على المحورين الأمامي والخلفي ٤×٤ ويهبط منها أربعة رجال وفي لمح البصر يحملونها إلى داخل السيارة، وحين ظهر أتباع «شفيق» ليحاولوا التدخل فوجئوا بطبنجات تشهر عليهم من داخل السيارة التي انطلقت لا تلوي

على شيء، كان يرقب ما يحدث مبهور الأنفاس، وأحس أنه في حلم مشابه لأحلام الليلة الماضية، وتنبه بالكاد إلى الحارس الذي هتف بقربه الأستاذ أشرف عفيفي؟ أحمل أمانة لحضرتك!

في شقة المعادي حيث وضع جهاز الحاسوب Lab Top Computer الخاص به جلس وكل نأمة في جسده ترتجف، وأمامه الأقراص المدمجة CD يحاول أن يقسر نفسه على تصديق ما يحدث أحقًا تحوي تلك الأقراص ما سيمكنه من انتصاره الأكبر.. أغمض عينيه برهة يستعيد على شاشة التخيل كل ما يمكن أن يحدث فور انفجار «الخبطة» ثم وضع القرص الأول متمتمًا بالبسملة!

في الشرفة المطلة على جزء من نيل المعادي أطبق يديه على السور المعدني وجسده ينتفض وينز عرقًا، كان قد أصيب بالملاريا منذ سنوات حين سافر في مهمة صحفية إلى إحدى الدول في غرب أفريقيا ويبدو أنهم طعموه ضد بعوضة الجابون التي قالوا له إنها قاتلة، ونسوا أن يطعموه ضد بعوضة «الأنوفيليس» التي أصابته بالملاريا؛ وقد عولج وشفي ولكنه ظل بعدها بين الحين والحين يعاني من بعض أعراضها فجأة وبلا مبرر؛ فتشمله الرعشة مع الإحساس بالبرد وارتفاع درجة حرارة الجسم لدرجة الحمى، لكن ما حدث له بعد مشاهدته للأقراص المدمجة الثلاثة كان حالة تتجاوز المرض وتقترب كثيرًا من منطقة الهذيان.

«كل هذا الجبروت يا أولاد الـ.........»! كل هذه الجرأة على تمزيق لحم البلد؟ كل هذه المتاجرة بصحة الناس وتسميمهم وتحويلهم إلى نوع من الفئران وخنازير غينيا وقرود التجارب؟ وهذا الفيض المتصل من السرقة والسمسرة والرشاوي واستخدام المخدرات وتجارة السلاح والرقيق الأبيض؟ كارثة وقائمة كاملة بأسماء الفتيات المجهزات لأغراض «البيزنيس»وثالثتها في الترتيب صاحبتنا سكرتيرة الجرواني وبطلة أحداث الأيام الأخيرة!! هزته تلك القيمة الباقية في نفس البغى الفاضلة؛ إذ كان بإمكانها أن تحذف اسمها من القائمة ولم تفعل، فماذا يكون الأمر إلا بعضًا من فضيلة مجروحة لكنها باقية؟ وفي الصباح التالي ذهب إلى حيث يجب أن يذهب.. رجلاً غير الرجل..



# سوناتا لتشرين (١٤)

هرع الصحفي العجوز مرتعبًا يحمل أوراق «أشرف عفيفي» إلى صاحب المعالي مبرئًا ذمته، طالبًا النصح والمشورة! أذهله ذلك الهدوء المحير الذي ران على الرجل وعلى المكان كله.. ساد صمت بارد ثقيل حتى خيل إلى رئيس التحرير المفزوع أن ضربات قلبه تثير وحدها ما وقر في أذنيه من ضجيج.. وقفز إلى ذاكرته بيت في قصيدة للأخطل الصغير – اللبناني بشارة الخوري – يصف فيه حالة صمت بوصف معجز لم يعرض له مثيلاً حين قال: صمت يفرك فيه خب النمل في ملس الرخام..! يا سلام! بل يا للروعة! صمت كامل تام لدرجة أنه يمكن فيه سماع صوت زحف النمل على أرض من رخام! غالبته الذكرى فابتسم لنفسه.. فضيلة صاحب المعالي: أراك تبتسم على خلاف حالك حين دخلت عليَّ مصفرًا مكفهرًا!

قالها وهو يضع الأوراق مطوية على حافة المكتب..

وهي ابتسامة أقرب إلى رد فعل عصبي منعكس! وأنا أتلهف على معرفة رأي معاليك في هذا التحقيق «الكارثة» الذي رماني به أشرف عفيفي!

وبدون أن تختلج قسماته بأي تعبير.. همس في لهجة حسم مقتضبة..
أنشره!
ثم نهض ليعود إلى جلسته الأولى خلف المكتب وأردف بصوت أعلى قليلاً وفورًا: في عدد الغد!

حاول أن يناقش.. أن يستفسر.. أن يفهم! لكن جدارًا من الثلج حال بينه وبين ناصحه الذي تعلل بإجراء بعض الاتصالات الهاتفية الضرورية مشيرًا له بالانصراف!

وعاد الرجل إلى مكتبه.. ليجد أشرف في انتظاره يرمقه وقد قرأ على وجهه علامات خيبة أمل مختلطة بغيظ كظيم تورد له وجه غضنته سنوات العمل الطويلة في بلاط صاحبة الجلالة، وحفرت أخاديدها كأنها مسارب دمع افتقرت بعد انقطاع الفيض القديم، وسنوات حفلت بكل الأحزان وهضمتها، وواجهت كل الهزائم وتجاوزتها وذاقت كل الأفراح في نفس كأس الأتراح، ولم تترك ثمالة! لم يبق موضع في الجسد العجوز خاليًا من ندوب المسيرة الخرقاء التي ظن يومًا أنها ستتوج بإكليل انتصار مؤزر، لكن

التاج تحول إلى طوق يحمل رقمًا ونحاسة تشير إلى حقيقة الدور الذي فضل أن يلعبه حارسًا مأجورًا في حديقة الكبار!

لمح أشرف الحمرة وقد انتقلت من وجه صاحبه إلى عينيه اللتين اختنقتا بشكل ينذر بالخطر.

- أنت في حاجة ماسة لجرعة مخفضة لضغط الدم.. اجلس واسترح وسأطلب لك طبيب المؤسسة!

اصفر وجه الرجل وانفجر معولاً:

- ليس بي شيء.. بل ربما كنت سعيدًا.. نعم فلا شيء يسعدني قدر رؤيتي لك ومراقبتي إياك، بينما يدي تمتد لك بالحبل الذي ستشنق به نفسك! فأبشر.. هذه هي أوراق تحقيقك «القنبلة»!

وهذه هي تأشيرتي.. تنشر بالصفحة الثالثة كاملة.. هنيئًا لك..

رمى له الأوراق ثم راح يجمع له الأشياء من على المكتب في عشوائية عصبية وهو يغمغم.. أما أنا فلن أبق لأحضر جنازتك! سأقوم بأجازة مفتوحة وأسافر في جولتي الأوروبية المؤجلة.. وأرجو حين أعود أن أراك هنا ثانية!

لم يرحمه ولم يتركه ليمضي مطلق السراح وأصر على إبقائه سجين كراهيته فودعه بعبارة قفزت على لسانه.. حين تعود ستجدني جالسًا على هذا الكرسي خلف هذا المكتب! فلتصحبك السلامة!

خرج الرجل مندفعًا كالهارب من الجحيم.. وجلس هو مسترخيًا يحتضن الأوراق التي ستصنع منه في صبيحة الغد نجمًا لا يطاوله في سماء الصحافة قرين! أغمض عينيه ليجد سؤالاً يتأرجح على بوابة الأفكار المتداعية.. وهي: ألن تحاول أن تعرف ماذا حدث لها؟ أم ان اهتمامك بها قد انتهى بنهاية حاجتك إليها؟ كلا بالطبع.. سأترك الموضوع بمجرد توضيب الماكيت ودخول العدد إلى المطبعة؟ وقد حدث هذا بعد غروب نفس اليوم..

اتجه إلى المكان الذي لم يذهب إليه يومًا بإرادته واختياره.. فقط هذه المرة كان يدخله راغبًا مختارًا..

— سيادة العميد مجدي عبد الستار.. اتصل الرجل في الاستعلامات بذلك الممر الضيق ذي اللون الرمادي الكالح وطلب من أشرف أن يتفضل بالانتظار لدقائق! وراح يفكر في الثنائية: صحفي وضابط أمن!! المهمة تبدو واضحة وأزعجه أن يرمقه الرجل القابع في مقعد الانتظار بهذه النظرات الحادة المشحونة بالعداء والاتهام. كان يعرفه ويذكر أنه التقى به ذات مرة في الأتيليه! نعم هو يذكره الآن بوضوح.. هو شاعر له اسم نسيه وبقى اللقب في الذاكرة «شكشاكة » .. اسم لا يمكن نسيانه لغرابته (ماذا يفعل هنا؟.. عجبًا.. وماذا تفعل أنت؟ ألا يجوز أنه جاء برغبته ليلقى صديقًا أو قريبًا في «الإدارة» مثلما جئت؟ أم أنك تركب متن الريبة كما يفعل غيرك؟).. ريبة مجانية لا قيمة لها.. همس لنفسه بلا صوت..

والحارس يهتف باسمه مناديًا..

- لن يصدقوا يا أشرف أنك جئتنا برغبتك وبدون استدعاء!

- لا تقل «جئتنا» فقد أتيت لك وحدك.. صديقًا من صداقات المدرسة وجليسك في فصل الثالثة علمي أول بمدرسة السعيدية..
- أتظن أنهم سيأكلون من هذه الطبخة؟.. دعك منهم ومن غيرهم وهات ما عندك..

حكى له القصة كلها دون أن يهمل منها أية تفاصيل.. واستمع إليه رجل الأمن في إصغاء يتصاعد نبض الاهتمام به إلى درجة اللهفة وهل عرضت ما أتتك به الفتاة على «صاحب المعالي» .

باغته سؤال رجل الأمن كأنه لكمة تلقاها في بطنه: وما صلتكم أنتم «بصاحب المعالي».

غلبت الآخر طبيعته المهنية فانتهره بأسلوب رسمي «لا تسأل واجب.. هل عرضت الأمر على معاليه؟»

ساخطًا متبرمًا أجاب: بل عرضه عليه الرجل العجوز..رئيس التحرير وصرح له بنشره!

- استدار مجدي عبد الستار بكرسيه الدوار ليعطيه ظهره مختليًا بتليفون خاص منفصل عن باقي الهواتف الموجودة وانهمك

يطلب في سرية هامسة.. وتسلى أشرف بمتابعة ذبابة لحوحة تصر على الوقوف على إذن مجدي.. وأحس بدافع قهري يحرضه على ضربها وإبعاده، وفي اللحظة التي استجاب لدافعه وهم يضربها بالمذبة البلاستيك (من الواضح أن تواجد الذباب في مكتب رجل الأمن يمثل مشكلة.. رغم برودة التكييف) أوقف الرجل ضربة المذبة بيده.. وهمس في استياء مدهش.. معاليه فعلاً صرح بنشر المقال!!

– لم أجئ إليك من أجل المقال ومن صرح بنشره.. جئت من أجل المسكينة التي وقعت في أيدي الزبانية.

بابتسامة مقتضبة لا تعني شيئًا غمغم في فتور: عن أي زبانية تتحدث؟ صاحبتك مقبوض عليها بتهمة سرقة مخدومها!!

# سوناتا لتشرين (١٥)

عرف أخيرًا أن الرجال الذين اعترضوا طريقها عند خروجها من المحل الذي واعدته فيه، لم يكونوا من أعوان وحراس الجرواني! أخبره مجدي عبد الستار أنهم كانوا رجال الشرطة الذين كلفوا بالقبض عليها نتيجة بلاغ من مخدومها يتهمها فيه باقتحام مكتبه الخاص وسرقة مجموعة من الوثائق والمجوهرات..

– تحدث كثيرًا في بلاغه عن «سيديهات» شديدة الأهمية.. ولكن عملية التفتيش الدقيقة لمسكنها لم تظهرها.. المجوهرات وحدها هي التي ضبطت.. وقد حاولت إنكار فعل السرقة وادعت أنها هدايا قدمها لها.. ولكن الإنكار لم يفدها وأمرت النيابة بحبسها على ذمة القضية..

ولم يحل إحساس عارم بالذنب دون اندفاعه في إطلاق صواريخ انتصاره! وقد بقى في مطابع الجريدة حتى خرجت نسخ الطبعة الأولى وطالعت عيناه «المانشيت» المنتظر (سقوط إمبراطورية الجرواني - أشرف عفيفي يكشف بالأدلة والوثائق الدامغة أكبر قضية فساد في مصر - الرشوة المادية والجنسية وجرائم الاحتكار والتهريب وغسل الأموال تدين أكبر مؤسسة قائمة على الدعارة واللصوصية).. وقبل أن تشرق شمس اليوم التالي كانت الأرض تهتز تحت أقدام الجميع.. وحين اختلى بنسخته مع خيوط الضوء الفجري وضمها إلى صدره واسمه يقتحم إغفاءة الطرف الناعس بالبنط العريض؛ كان يفكر في الضحية، ويعاهد نفسه أن يذهب لزيارتها، ويؤكد لها أنه لن يتخلى عنها وسيفعل كل ما باستطاعته ليؤازرها في محنتها! ونام على وسادة الوعد ليستيقظ بعد ثلاث ساعات لا تزيد.. كان رنين التليفون السلكي العادى يصاحبه رنين المحمول.. وكانا يتبادلان مقاطع الرنين وكان كلا منهما يرد على الآخر، وأشارت الشاشات المضيئة إلى خمس محاولات سابقة! وبدأ يومه واستمر طواله يتحدث في الهواتف، البلد كلها احتشدت كي تهنئه، لم يحدث في تاريخ الصحافة المصرية مثل هذا الإنجاز الصاعق.. وحق له أن يحتسي كأس النصر حتى الثمالة ومر على الزوجة والحبيبة ليرى في عيني كل منهما انبهارًا لم يره من قبل، وجذبه فكري من يده إلى مقهاه المفضل في وسط البلد من أين أتيت بهذه الوثائق؟ من هو ابن الحرام الذي أتاح لك أن تقتحم قدس أقداس الجرواني؟.. تعلم أني كرهتك وقرأت لك كفك منذ أول يوم لالتحاقك بالجريدة وعرفت أنك ابن لعينة موسوم بميسم النجاح

فأنت من الفصيلة التي خلقت لتدمر أمثالي.. فهيا أخبرني كيف فعلتها؟ ولا أحد يستطيع أن يهمل فكري السعدني أو يتجاهله. فقد خلقت له صفاته الشخصية في الصراحة والمواجهة ورفض النفاث جاذبية أحاطته بحماية من نوع خاص؛ برغم أنه لم يكن صحفيًا من الشطار بل لعله كان يفتقر إلى ألف باء العمل الصحفي، ونادرًا ما كان ينشر له موضوع أو تحقيق يحمل اسمه.. ومع ذلك فالجميع يراعون خاطره ويتجاوزون كثيرًا عن سلاطة لسانه وعدوانيته «أنا حبيبك يا فكري فلا تلح عليَّ.. وأنت تعلم جيدًا أن واجبي هو حماية مصدري وعدم كشفه! وأصدر فكري ذلك الصوت المنكر من منخريه وفرش له الملاءة.

- بل مصدرك هذا واشرب عصيره يا صحفي نصف كم! إياك أن تظن حين تتحاذق على الأسطى الذي علمك أن هذا سيجعل منك شيئًا.. قم واسرح و لم الغلة ولكن دعني أؤكد لك شيئًا.. هذه الضجة التي تعيش فيها لن تسفر إلا عن خيبة ثقيلة.. وسأراك قريبًا يا أشرف يا ابن عمي عفيفي تمشي متخفيًا بجوار الجدران بعيدًا عن عيون الناس.. وستصبح عبرة!.. ونهض مغادرًا وهو يرسل قبلة على أطراف أصابعه لفكري الذي رد عليه مودعًا بعبارة فاحشة!

قفزت صورتها إلى مخيلته مصفدة بالأغلال في سجن النساء وسط الداعرات وتاجرات المخدرات وتقلبت الغصة في صدره، ولجأ إلى صديقه المحامي شريف زهران الذي اندهش بعمق أريد أن أراها اليوم!

- كأنك تريد أن تعترف أمام العالم كله بأنها هي التي أمدتك بالوثائق؟..
يا رجل أبعد عنها الآن.. دعني أمارس عملي القانوني لأخرجها بكفالة وبعدها تستطيع أن تراها كما تريد!
- النظر في تجديد الحبس لن يتم قبل أسبوعين.. وأنا أريد أن أراها.. أرجوك.. وسأزورها بعيدًا عن نظر أي مراقب.. لن يعرف أحد أني زرتها غيرك وغير النيابة وضابط السجن!

ووعده شريف بأن يرتب للزيارة في الغد.. أحس فجأة بملل جارف من كل مظاهر الاحتفال التي تحيط به؛ بل بدأ يحس تجاهها برهبة متشككة.. وكان الجميع يفرشون له بساطًا ليسير عليه، ثم يجذبونه من تحت أقدامه ليصبح سخرية الجميع! لكن الملل غادره سريعًا حين رن جرس المحمول وسمع صاحب المعالي بنفسه يهنئه..

- مبروك يا أشرف.. خبطة العمر فعلاً.. قرار رئاسة التحرير سيوقع مساء اليوم شد حيلك!

كان أقرب مكان يستطيع أن يسترخي فيك ذلك البار الصغير الرابض في الدور السادس والعشرين من ذلك الفندق المهول الرابض على الشاطئ الشرقي للنيل.. رمى نفسه على إحدى الموائد واحتفل وحده وظل يحتفل طوال الليلة - وبملابسه الداخلية - ارتمى على فراشه.. حيث يسقط عليه مخروط شارد من ضوء قمر يقترب من الاكتمال.. (كانت أم أشرف تمنعه من النوم في ضوء القمر وتردد أن ذلك يصيب النائم بالجنون).

من أين لك بعلوم القمر يا ست أم أشرف؟ البحر يا بني يعلو مده مع اكتمال البدر! يرجعون الظاهرة يا أمي لقانون الجاذبية.. يعني القمر يكون في منتصف الشهر العربي أقرب ما يكون للأرض فتكون جاذبيته مؤثرة..

– ماذا تقول يا أشرف؟
– لا أقول شيئًا يا أم أشرف.. أنا نائم وأحدثك في الحلم!

من زاوية أخرى لسعته شمس الصباح حين هاتفه شريف وأخبره أنه دبر له أمر الزيارة!

اشترى لها باقة من الزهور ووجبة كباب (إذا لم تأكلها فستفيدها في التعامل مع حارستها).

في مقر الحبس الاحتياطي همس له الضابط المختص وأخبره أنه سيلقي السجينة في مكتبه وأعلن الشرطي المحبوسة احتياطي غادة السيد رمضان سعادتك! ودخلت غادة..

بدهشة تقترب من الاستنكار التفت للضابط ليست هي!!

– ليست من يا أستاذ؟
– ليست غادة السيد رمضان التي أعرفها!
– لا علم لي بغادة التي تعرفها جنابك.. ولكن الأوراق اليقينية في الملف أمامي تقول إن هذه هي غادة السيد رمضان.. ثمان

وعشرون سنة.. السكرتيرة الخاصة لممدوح الجرواني..

وأنبرت الفتاة لتكمل الدائرة.. أنا لا أعرف الأستاذ ولم يسبق لي أن شاهدته.

خرج من مبنى السجن مكدودًا خائر القوى،كمن تعرض لتوه لصاعقة كهربائية.. عاجز تمامًا عن التفكير أو السيطرة على الوعي.. فقط كانت وصية أم أشرف تلح عليه بألا ينام في ضوء القمر.

# سوناتا لتشرين (١٦)

سقط شيء ما في جوفه أحس له بوقع قبضة تقتحم بطنه وتعتصر أمعاءه بينما راحت الومضات الحمراء تغشي عينيه وهو يقود سيارته على غير هدى «أريد فقط أن أفهم..» إذا كانت هذه الفتاة هي مساعدة الجرواني الحقيقية فمن كانت الأخرى؟ وأين ذهبت؟ ألم ترها بعينيك وهم يمسكون بها ويدفعونها داخل السيارة لتنطلق بها مع صاحبك في الداخلية؟.. ألم تكن هي؟.. ربما كان الجواب لديه! «نظر له صاحبه بضجر واستمع إليه ثم تخر بأنفه ساخرًا».

تقول إنها فتاة أخرى غير التي تعرفها؟ مرحبًا بالبلاهة والجنون الأصلي! أو لعلها الخطة التي تفتق عنها ذهن محاميك العبقري ليخلي سبيل ست الحسن لا فائدة يا أشرف باشا.. دعك من هذه اللصة وأفرغ للمستقبل

الذي فتح لك ذراعيه على وسعهما.. قرار تعيينك وقع بالأمس.. ونشر اليوم.. مبروك يا حضرة رئيس التحرير!!

انتشت الدنيا بالانتصار في لحظة إصابتها بالجنون.. وحين انفتح باب المكتب تتوافد من خلاله أفواج المهنئين من داخل الصحيفة وخارجها وتواصل رنين الهواتف الثابت منها والمحمول.. كان هناك نذير يحاول التسلل باعثًا ومضاته مصرًّا على انتزاعه من «الجو الاحتفالي الذي أحاط به.. رقم غريب على شاشة المحمول وكلما أزاحه عاد يلح من جديد في إصرار يوحي بالخطورة.. وأخيرًا ربما بعد المحاولة العاشرة.. فتح الخط يرد عليه.. أستاذ أشرف عفيفي؟ مبروك أولاً رئاسة التحرير.. أنا سعيد العطوي.. تسمع عني؟

- ومن لم يسمع بسعيد العطوي؟ ذلك المحامي الرهيب الذي طار ذكره في الآفاق واحتلت أخباره وتطورات قضاياه صدارة الصفحات الأولى والوسطى والأخيرة في كل الجرائد والمجلات.. واقتران اسمه بأهم الأحكام التي صدرت في المحاكمات الكبرى حتى أصبح مجرد التلويح باسمه كافيًا لإرهاب الخصوم ... ».
- طبعًا يا أستاذ! من في مصر كلها لم يسمع عن ألمع نجوم القانون فيها..
- أشكرك يا أشرف بك.. والحقيقة أنني كنت أتمنى أن تكون هذه المكالمة لتهنئك فقط.. ولكن ما العمل.. وأنا مضطر أن أحدثك

في أمور قانونية ثقيلة الظل؟.. المهم لابد أن نلتقي الليلة ولك أن تختار في مكتبي أو لديك في الجريدة!

- أحس بنبرة غريبة في كلمات العطوي تشبه الإنذار وأحس أنه لابد أن يبادر بالهجوم.
- أولاً يا سعيد بك ما دمت تقول إن كلامنا يتصل بالعمل وبالقانون هل لي أن أعرف من الذي تمثله وترعى مصالحه؟
- طبعًا يا عزيزي! وأنا أسف فالمفروض أن هذا أول ما يجب أن أذكره لك.. أنا أمثل مصالح الأستاذ الجرواني صاحب ورئيس مجلس إدارة الجرواني جروب!.. والتفاصيل ستعرفها حين نلتقي الليلة! ها هي ومضة أخرى تتوهج حتى درجة الاحتراق.. يكاد يسمع لها نشيش الاشتعال والتلاشي ووفقًا لنظام تظهر تجلياته دون أن يفشي قوانينه كان دبيب اتصال رتيب ينبض، مشيرًا إلى ما حدث الصباح ولقاء السجن الفاشل! بشكل أو بآخر أيقن أن مكالمة سعيد العطوي لها علاقة مؤكدة بواقعة الفتاة المسجونة! وأن هذه العلاقة تنذر بشر مستطير..

قال له رئيس التحرير السابق ذات مرة – حين كانا يتقمصان دوري الأستاذ وتلميذه – حين تتشابك خيوط أي موضوع في رأسك وتعجز عن تفريقها.. خذ حمامًا ونام.. وحين تستيقظ ستجدها قد تفرقت واتضحت! وكان بيت السيدة القديم هو الأقرب.. وأسلمته الغفوة إلى أنشودة سمعها من أحد الموالدية فى زمن الصبا الغابر درويش يحبك

حزامًا أخضر ويترك شعره الغزير طويلاً منسالاً على كتفيه.. ويهز رأسه به مغمضًا عينيه ويردد بصوت مشروح لا يخلو من شجن.

يا سيدة.. يا سيدة.. يأم الشموع القايدة..
يا أخت الحسن وأخت الحسين.. يا بنت أكرم والدة..
ثم يدخل «عبده» بائع السمين في الناصرية يقدم رغيفًا محشوًا.بما كان يسيل لعابه دائمًا وهو يصيح صيحته الشهيرة خد من عبد الله واتكل على الله!.

كان يتلمظ بطعم الدموع حين صاح مؤذن الجامع يدعو لصلاة المغرب.. تذكر أنه لم يصل إلى البيت وأن الغفوة فاجأته وهو يجلس مستندًا للمنبر في انتظار الآذان.. وداخل المقصورة كان ذلك النور الأخضر يهدهد حواسه ويجذبه إلى حضن مخملي يضمخه عطر الياسمين.

وبات كل شيء مرتبًا وواضحًا.. لم يكن الرجال الذين اختطفوا الفتاة من رجال الشرطة بل كانوا رجال الجرواني.. أما الأخرى فقد قبض عليها ببلاغ من الجرواني بعدها.. ولكن.. ما هو الهدف؟ وأين ذهبوا بالمسكينه؟.. هل قتلوها؟.. فاجأة الاحتمال فاستنكره ورفضه وكان يظن أنه سيجد مزيدًا من الوضوح لدى سعيد العطوي.. قبل أن نتحدث في أي شيء يا سعيد بك أريد أن أعرف ماذا حدث للفتاة الأصلية سكرتيرة الجرواني.. ومساعدته وأمينة سره!.

ولكنك تعرف أنها في السجن وستحاكم بتهمة سرقة مخدومها!

– أنت أيضًا؟ كنت أتعشم أن نبدأ حديثنا بالصراحة.. ولكن يبدو..

قاطعه العطوي ببرود مهني.

– أنا لا شأن لي بما حدث بينك وبين تلك الفتاة.. بل لا شأن لي أيضًا بما جرى بينك وبين الجرواني.. مهمتك هي تصفية الموقف الذي تسببت فيه الحملة الصحفية المليئة بالأكاذيب والافتراءات ونشرتها حضرتكم معتمدة على وثائق مزيفة وغير حقيقية.. وكما هي عادتي في أي نزاع مماثل: أبدأ بالمحاولة السلمية بعيدًا عن القضاء.. وها أنا أقدم لك فرصة النجاة تستطيع حضرتك أن تنشر في نفس الجريدة وفي نفس الصفحات وبنفس البنط الذي كتبت به مانشيتاتك السابقة موضوعًا تعتذر فيه عما نشرته سابقًا وتؤكد أن هناك معلومات كاذبة ووثائق مزوره قد دست عليك وأنك تعتذر للرجل الذي تحترمه وتقدر خدماته التي يقدمها للاقتصاد الوطني.

وحين انفجر أشرف ضاحكًا في سخرية وهو يهتف قائلاً: إنه لم يتصور أن يكون محام عتويل له شهرة وقدرة سعيد العطوي على هذا القدر من السذاجة.

صرخ العطوي مرعدًا: أما أنت فأغبى خلق الله! ألم تدرك بعد أنك التصقت بخيوط العنكبوت؟



# سوناتا لتشرين (١٧)

ولم يصدق حرفًا من القصة التي رواها سعيد العطوي وبدت كل تفاصيلها وكأنها صفحات وكلمات تنهال في سخرية لاذعة لذا كان يرفض تصديقها حتى لا يرى نفسه مسخًا مقضيًا عليه.. وأثر أن يذهب بها إلى صديقه في «أمن الدولة» أملاً أن يجد لديه ما يعيد الأمور في ذهنه إلى تراتبتها المنطقية.

استمع إليه مجدي في استغراق وقد أغمض عينيه في تركيز حتى انتهى أشرف من إعادة كل كلمة في حديث العطوي! ففتح عينيه واحتدت تلك العبسة بين حاجبين.. وهو يتنهد ويهز كتفيه في حركة لم يفهم أشرف مغزاها على وجه التحديد وهل هي تعبير عن الحياء وعدم الاهتمام؟ أم تراها نوعًا من العجز عن تفسير الأمر.. لكنها لم تكن هذه أو تلك..

— أشرف باشا! ما رواه لك سعيد العطوي كذب من أوله لأخره..

وصحيح مائة بالمائه!

- هل تراني في حالة تسمح لي بحل الألغاز ولعب الكلمات المتقاطعة؟
- أنا لا أدبج لك ألغازًا ولا أمارس معك أي لعبة! فقط أشرح لك ما تبدو غافلاً عنه.. وبداية فسعيد العطوي لم يكن «يهوش» أو «يبلف» حين واجهك بأنك التصقت بخيوط العنكبوت.. والعنكبوت طبعًا هو الجرواني الذي استهنت بقوته وخدعتك عنه رغبتك المحرقة فى اصطياده ليكون مادة لسبق صحفي يرفعك إلى سقف الشهرة الصحفية ومن ثم بدأت معه ما تصورناه نوعًا من الابتزاز الذي يعتمد في العادة على اصطياد أنصاف الحقائق وأرباع الشبهات وخلطها بمزيج «الشائعات» وتثار حملة صحفية لابد أن يسارع معها الجرواني إلى الوضوح وتقديم «العرض» اللائق تنتهي الحملة.. لكن الرجل كان أذكى من أن يحاول رشوتك والوقوع في شرك يدعم أنها ماثلة له.. فبدأ في استخدام صلاته وصداقاته في كواليس السلطة. ونصحه «صاحب المعالي» بالهدوء والابتعاد عن الصورة وترك الأمر برمته لمساعديه الذين استجلبهم من مخزن «معاش» الأجهزة الأمنية.. وهذا ما حدث! عكف «الخبراء » في وضع خطة يمكن أن تضع لها اسمًا حركيًا فتقول «خطة صيد من يريد اصطيادك». واستخدموا ما تصوروا أنه خطتك ليوقعوا بك.. وكانت البداية عبقرية. يستدعيك صاحب المعالي وينصحك

بلقاء الجرواني ومناقشته فيما اتهمته به ليكون رده مكملاً لحملتك ويعطيها مصداقيتها.

وذهبت للموعد إياه حيث استدرجت لتلتقي بالغادة التي سحرتك وقدمت لك نفسها باعتبارها ذراع مخدومها اليمني وتغزل على منوال خيالك الرومانسي خيوط الفراشة الرقيقة التي أوقعها سوء حظها في هالات النور الحارق ليستخدمها الجرواني في مباذله ويقدمها للآخرين قربانًا لمصالحه ثم يضحي بها فريسة لزوجته المتهتكة وفتاها الجيجولو .. واستثارت الفتاة بمهارة فائقة مكامن الفارس «المنقذ» الذي لابد أن يلبي استغاثة الأميرة الأسيرة.. وكأنه دون كيخوته دي لامانتشا هرع بسيفه المتلوم لينقذ أميرته «دولثنيا ديل توبوسو» من الأشرار! وأكثر النقاط عبقرية في الخطة العنكبوتية للإيقاع بك كانت مسألة أقراص الكمبيوتر المدمجة التي تحوي كل معاملات الجرواني وصفقاته المشبوهة وصلة شركات المواجهة التي كونها لغسيل أموال المخدرات وتجارة السلاح وأرقام حساباتها ببنوك بالقاهرة وقبرص وجزر البهاماس وجزر كايمان.. أرقام وبيانات «كأنها» حقيقية تمامًا – هل لاحظت كأنها هذه؟– وأعدت لتكون مصدقة لتفاصيل الحملة الصحفية التي بدأتها على صفحات جريدتك..

كان يسمع ما يقوله رجل الأمن وأسراب غفيرة من النحل وزنابير الحفل تطن في أذنيه اللتين التهبتا احمرار ثم تجمدتا بردًا في ثوان.. بينما بقى جزء من الستار يحجب الضوء الكامل.

- كيف؟.. لا أفهم.. كيف يلفقون الأدلة لأنفسهم؟.. هذا جنون.

- بل هو العقل في كمال احتياله وخبثه. العقل حين يفرز السائل اللاصق صانعًا خيوط العنكبوت.. إذ أن الأدلة لابد أن تبدو جادة وحقيقية.. ومقنعة.. وقد صمموا لها برنامجًا كاملاً في الكمبيوتر وكأنه قاعدة بيانات ومعلومات مستقلة تمامًا وحين وقعت الذبابة في الشرك ونشرت حضرتك البيانات والمستندات التي جاءتك على قرص الكمبيوتر.. كانت تلك إشارة البدء لتتقوس الأطراف وتقفل الدائرة!

صمت رجل الأمن بغتة وكأنه شريط تسجيل أصيب بالعطب.. حتى وجهه الذي كانت تفترشه طوال حديثه ابتسامة استهزاء مليئة بالتشفي عاد لطبيعته المهنية ووضع قناع التقرير به واللامبالاة! أما صاحبنا فقد غرق في متاهة الأفكار التي يحاول أن يرتديها في رأسه حتى يتوازن.. وخرج صوته خافتًا مبحوحًا.

- تقصد أنهم يريدون اتهامي بالكذب والتلفيق.
- وستكون أدلتهم دامغة.

طويلاً.. طويلاً كان «صمته الذي فصله من المكان وعن صاحبه.. حتى آفاق على صوت مجدي ينبهه..»

- من الأفضل أن تدبر دفاعك فالأيام القادمة ستكون صعبة..

متباطئًا قام.. تتثاقل قدماه تحت ضغط أحجار يحملها على كتفيه.. «الديك ما تنصحني به ».

- في اعتقادي أن أمرًا قد صدر بتحطيمك وإقصائك من دائرة الصدارة.. والشاطر كما نعلم من يحني رأسه للريح العاصفة فلا تكابر وتفاهم مع العطوي!

«... مسألة وقت يابن الحاج عفيفي» .. فبعد أيام ستحمل نفس الصفحات التي انتشت بخمر انتصارك فتراقصت عليها مانشيتات الزهو والفخار.. ستحمل غدًا مانشتات الاعتذار والاعتراف بالسقوط.. أى هوان سيلحق بسيرتك؟ وأي خيبة ستجلل مشهدك الأخير وأنت تتراجع لتنزوي؟ إلا سحقًا للحظ العاثر ولعنة المصائر المبتورة.. وها أنت تسير بخطى حثيثة إلى نهاية مشوار لم يكد يبدأ.. أتذكر يوم هرعت بنسخة الصحيفة التي نشرت توقيعك لأول مرة إلى الأب الحاج عفيفي وهو في فراش مرضه الأخير؟

- انظر يا حاج.. ها هو الاسم.. تحقيق أشرف عفيفي.

أتذكر ابتسامته الوانية.. وتلك الدمعة التي ذرفتها عينه الكليلة.. وأصابعه المرتجفة تضغط قدر طاقتها على يدك؟.. كان قد فقد القدرة على

النطق.. ولكنه قال الكثير.. » .

– أسمع طلباتكم يا أستاذ عطوي؟..

تلا سعيد من أوراق أمامه وكأنه يلقي أحكامًا نهائية عليك أن تنشر ما أعددناه لك وأن توقعه باسمك معترفًا بتسرعك واعتمادك على مصادر كاذبة ضللتك!

– وإذا رفضت أن أفعل؟

– سننشر نفس الموضوع في الصحف الأخرى في إطار حملة ستمزقك إربا وسنجرك إلى ساحة القضاء ونتهمك بتقاضي رشوة مالية وطلب رشوة جنسية. وستكون نهايتك إما في السجن أو على مقهى من مقاهي الرصيف. أمامك يومان فقط تخبرنا بعدهما ماذا اخترت!

# سوناتا لتشرين (١٨)

سرت النيران في الهشيم بسرعة تجاوزت دقات قلبه، وتخطت تقديرات الحساب.. وها هي صحف الأيام الثلاث تصطف وتنفرد وتتبعثر في كل أرجاء الحجرة، وزميله الساخر القديم يجمعها في سمت متفلسف مبتعدًا عن أي محاولة للشماتة أو اللوم.. «لم تمهلك صاحبة الجلالة طويلاً.. فطبعها الحنون لا يمنح الرضا إلا بشروط خاصة أراك قد تجاوزتها». و لم يكن لديه ما يقول في مواجهة قضية منطقية خالية من الثغرات فركز انتباهه على رنين المحمول وحملق في الشاشة.. إنه مكتب صاحب المعالي.

- أين أنت؟ صاحب المعالي ينتظرك فلا تبطئ؟

هل هو طوق النجاة أم أحبولة المشنقة؟ صحبه زميله إلى رصيف الشارع الخلفي حيث ركن السيارة وقبل أن يودعه أمسكه من ذراعه.

- قضى الأمر وتم اصطيادك يا أبو الأشراف.. ولابد أن تنسحب فأخرج بظهر مستقيم ونظرة مشرعة لا تعطهم لذة احتقارك!...
- تشبث بيده وسأله كأنه يتوسل: هل تراني تعجلت أقداري؟

... عند بائع جرائد نشر بضاعته على الرصيف لمح عنوان صحيفة صادرة في حجم التابلويد.. كان المانشيت يصرخ بلون بنفسجي تبدو حروفه كزهور الجنازات قضية الموسم رئيس تحرير صحيفة كبرى يفبرك تحقيقًا عن الفساد ويطلب رشوة جنسية ومبالغ مالية طائلة!!

نظر إليه صاحب المعالي بنظرة قاتمة من خلف زجاج النظارة تم خلعها وراح يمسحها بخرقة رقيقة من جلد الغزال وأشار له بيده ليجلس.. فجلس وقد قرر أن يمضي منفذًا نصيحة زميله إلى آخر الشوط!

لن يسمح لهم بإذلاله.. سيرفض أن يختتم مشواره الصحفي المبتور بسطور اعتذار تصمه وتدمغه إلى الأبد وراح يردد في حديثه الداخلي مع هنيماته وتهويماته: إذا لم يكن من الموت بُد فمن العار أن تموت جبانًا، أفاق على صوت معاليه متراخمًا يهزج: أنت صحفي شاطر يا أشرف.. وغلطة الشاطر بألف.. لا تحاسب فيها على مقدار الشطارة وإنما على عمق الخطأ؟ ويؤسفنا وأنا شخصيًا أول من يؤسفه - وقوعك في هذا الفخ. نعم هو فخ أعد بمهارة تامة واستخدموا فيه طعمًا مزدوجًا كانوا يوقنون بضعفك تجاهه: الجنس والثروة! «ماذا يقول هذا الرجل؟ ومتى عرف عني نقاط ضعفي»».

إذا فمعاليك مؤمن مثلي بأنها مؤامرة مدبرة ومكيدة حيكت لي كذبًا وافتراءً..

«.. وكأنه لم يسمعه راح يواصل خطابه التحليلي ليصل في نهايته إلى اللحظة المقدورة».

لم أصدق في البداية وهاتفت الجرواني وعنفته وأنذرته بأن ما يفعله ليس إلا محاولة حقيرة لتشويه سمعة قلم وطني شريف. وستكون عاقبة تلك المحاولة وبالاً عليه طبعًا فأنا أحمي الشرفاء من رجال المهنة المقدسة، كان هذا موقفي و لم أساوم عليه حتى جاءني الجرواني ومحاميه العطوي يحملان كل الأسانيد والإثباتات التي زورت بدائلها ونشرت في مقالات.. ورأيت كل الأمر بكل تفاصيله واضحًا أصيلاً.. وأدركت حجم الخطأ الذي تورطت فيه.. ولا أخفي عليك أنني ناقشت الأمر مع زملاء مهنتك، ومع النقابة ومع المستشارين القانونيين.. ووصلنا جميعًا إلى نتيجة واحدة بالإجماع ودون أي معارضة!

صمت وهو يزفر كممثل يستجمع نفسه ليردد أهم أجزاء المشهد.

أمامك خياران لا ثالث لهما فإما أن تتقبل عواقب خطئك بهدوء وتعتذر للرجل، وهو بالمناسبة مستعد في هذه الحالة لإغلاق الملف، وسحب بلاغ النائب العام وشكوى النقابة.. وستقدم استقالتك بعدها.. ولن نقبلها.. بل سنعالج الموقف بما يحفظ ماء الوجه للجميع.. سنعينك

رئيسًا لمكتب الصحيفة في أي بلد متاح من بلاد أوروبا أو الشرق الأقصى، أما الخيار الثاني فهو أن تصر على سلامة موقفك وتدخل رحلة التحقيقات فى النيابة والنقابة محاولاً أن تجد لنفسك مخرجًا.. الأمر الذي لا يبدو في الواقع قابلاً للحدوث أو سنضطر في هذه الحالة إلى وقفك عن عملك لحين ظهور نتائج التحقيقات!

لم يكن صاحب المعالي يقدم له أي خيارات في واقع الأمر؛ بل كان يصيغ له قرارًا تم اتخاذه ولن يتسنى الرجوع عنه، وقد حرص على تضمينه تهديدًا واضحًا لا يخطئه الفهم.. «لقد تمكنوا منك وانتهى الأمر.. لم تستطع أن تجاريهم في لعبة أتقنوها وصاروا أساتذتها، و لم تكن أنت سوى متطفل على بلاطها..».

عند رأس جزيرة الروضة جلس في المكان المفضل لهواة صيد السمك بالبوصة والسنارة.. «الماكينة».. وثبت البوصة بين قدميه وأبحر بعينيه وأفكاره مع النهر العجوز.. كان قادمًا لتوه من مكتبه بالجريدة؛ حيث قدم استقالته وجمع أوراقه ومتعلقاته وأودعها حقيبة السيارة الفارهة المخصصة لرئيس التحرير؛ إذ أقنعه مدير مكتبه.. ذلك الأنيق الذي لم يره إلا مرة بعد أن أتوا خصيصًا من مكتب رئيس مجلس الإدارة بأن يدعهم لتوضيب أمور الوجاهة اللازمة ومنها السيارة التي لابد من إعادة تجهيزها بما يليق! وشكر لهم في أعماقه أن جعلوه يرحل بمتاعه القليل في سيارته القديمة فلا يغص بمرارة الحرمان وتسليم أدوات الانتصار المبتور..

عند سور النهر تركها.. وظل حتى الفجر يكرر حركة الصيد السيزيفيه التي لم تسفر عن حصيلة ما.. ولكنه مارس كل مشاعر الرثاء للنفس ونهنهة الاستشهاد.. ثم كافأ أحلامه المهزومة وطموحاته القديمة بالبشرى التي لوح له بها صاحب المعالي.. «سنعينك رئيسًا لمكتب الصحيفة في بلد من بلدان أوروبا أو الشرق الأقصى..» وأتم رحلة الليل منغمسًا في «تعسيلة» الوعد: سيعرضون عليه الأماكن الشاغرة.. وهو يعرف معظمها: هناك مكتب في بروكسل وآخر في براغ، وثالث في تورنتو بكندا.. لا.. لقد زار كل العواصم تلك و لم يعد فيها ما يغريه.. ومكتبا باريس ولندن محجوزان أحدهما لابن مدير وكالة الاعلان، والآخر لابن شقيق صاحب المعالي.. أما الشرق الأقصى.. فليته يكون مكتب نيودلهي! هناك سيكون قريبًا من نيبال.. ومن كاتمندو ويستطيع أن يسافر إلى التبت.. ويصعد إلى لهاسا ليقيم وسط أبناء بوذا.. ويتعلم ويصبح «لاما».. راهبًا زاهدًا متقشفًا من أتباع الجوتاما بوذا.. هاري راما.. هاري كريشنا.. هاري راما هاري.. ويأتي النوم مع طلة «الفجر».



# سوناتا لتشرين (١٩)

في التاسعة والأربعين انتهت حياته المهنية بخير من سطرين نشر في الصحيفة التي كانت ترويستها ما زالت تحمل اسمه رئيسًا للتحرير.. «قدم الأستاذ أشرف عفيفي استقالته من رئاسة التحرير لأسباب صحية.. ونتمنى له عاجل الشفاء» لم يذكروا حرفًا أو إشارة إلى الوعد المأمول.. وحين لجأ لمن بقى من أصدقاء لهم صلة بدوائر القرار سألوا ثم عادوا إليه بالخبر اليقين: فلتنس المسألة برمتها.. البلد لا يستطيع أن يضع في واجهاته الإعلامية بالخارج أشخاصًا دار حولهم لغط أو حاوطتهم الشبهات.. وعليك أن تقنع بالتسوية التي منحتك الأمان وتقرر فيها الاكتفاء بقبول استقالتك وحفظ الشكاوى المقدمة من الجرواني للنقابة ومنعه من تقديم مثيلتها للنيابة العامة!.. فضلاً عن هذا ستتقاضى معاشًا مجزيًا وسيوصى بإسناد مقررات صحفية تدرسها في كورسات لطلبة كليات الإعلام.. ألا يكفيك كل هذا؟.. تريد أن «تنهب» يابن الحاج عفيفي؟ أحمد ربنا.. سمع وسواسه يخنس بها في أذنه فضحك منه ساخرًا وهو يحاوره وهل

تركتم لي خيارًا؟ ومن ذا يمكنني من «النهب» وشطط الأماني؟ لقد خسرت معركتي التي لم أحسن تدبيرها وبددت كل ما كان في يدي من أوراق رابحة.. وانقدت إلى الشرك كالأعمي الذي فقد عصاه.. وأعلم الآن أن المصير قد تحدد ولن أتمكن بحال من تغيير مساره.. وديون القمار لا تردا!.. فقط لابد أن أفهم.. حتى أستطيع أن أواصل الرحلة بلا حسرة إلا بعد أن ألقاه.. وبعدها فليحدث أي شيء ولتأت النهاية كيفما تكون قال له العطوي ودخان سيجاره الرخيص يعبق جو الحجرة الفاخرة معلنًا عن وضاعة الجوهر المغلف بالثراء ماذا بقى لديك بعد أن سوينا كل الأمور؟ ألم يبلغك معاليه بالتنازلات التي طلبها ليحميك واضطررنا لأن نرضيه؟.. ماذا تريد من الباشا أكثر مما أعطاك؟.. أريد أن أتحدث معه فقط! دقائق خمسًا لا تزيد.. ولن يرى وجهي أو يسمع عني بعدها.. - أفهم ما وراء المحاولة ولا أراها مجدية وأنصحك بأن تحاول في عمل جديد لا صلة له بالصحافة - لا شيء مما فهمته صحيح ولا أطلب منك غير إبلاغ مخدومك أما نصائحك الجوفاء فيمكنك أن تبتلعها وتهضمها لتخرج من أمعائك العفنة إلى حيث ينبغي لها أن تكون!.. لمع الخوف برقا في عيني المحامي المنتفخ وتدلى فكه بشفته السفلى التي التصق بها سيجاره.. (ولعله ظن مسا من جنون قد أصابك) فأشار بيده مهدئًا وهو يعدك بأن ينقل رغبتك إلى الباشا ويدبر لك موعدا معه! (ماذا تريد من وراء هذا اللقاء؟ وكيف تمنح ذلك الذئب فرصة إضافية ليفترسك بأنياب السخرية والتشفي؟.. أتكون واحدًا من هؤلاء الضحايا المازوخيين الذين يعانقون قاتليهم؟

أو لعلك واحد ممن أدينوا وحكم عليهم بالإعدام ولحظة التنفيذ أصروا على احتضان «الجلاد »وتقبيله؟

تعرف أن اللقاء لابد أن يكون مهينًا ومع ذلك تسعى إليه!.. فليكن أنت واختيارك ولك الحرية الكاملة لكي تكمل فصول مأساتك بمشهد أخير تلقى فيه مرثيتك الأخيرة.. وقد لقيه الجرواني واقفًا على حافة حوض السباحة وحوله كلباه «الدوبرمان» يكشران عن أنياب منذرة.. لم أفاجئك و لم أخذك على غرة و لم أغدر بك! بل توددت إليك كثيرًا في البداية ووسطت بيني وبينك كثيرًا من زملائك وكلفت رئيسك السابق بأن يتحدث معك ويطامن من غلوائك! بل تدخل لديك صاحب المعالي بنفسه ونصحك بأن تتفاهم «معي».. ووجهك لقبول الدعوة التي بعثت بها إليك.. لكنك كنت قد امتلأت بنفسك و لم تعد قادرًا على النظر خارجها.. أخفي عنك تورمها حقائق الحملة التي اندفعت توجهها إليّ.. فكنت كالثور في محل الخزف لكني لم أكن مستعدًا لفقد خزفي.. وكان لابد أن تخرس! وأقترح رجالي كثيرًا من السبل ومنها التصفية الجسدية المباشرة ولن تكون صعبة فحادث سيارة أو انفجار أنبوب الغاز أو السقوط من شرفة الدور العاشر مسائل أصبحت أسهل من ألعاب الأطفال.. و لم يكن لديَّ أنا شخصيًا مانع من الموافقة.. لكن العطوي تعرفه طبعًا كان أكثرنا ذكاء حين عارضنا جميعًا: على رسلكم.. ربما كان تدبير الخلاص من صحفي بالقتل أمرًا سهلاً.. لكنه سيشعل كل حرف كتبه هذا الصحفي في حملته ويجعله تنينًا متوهجًا أمام الناس! والحل عندي أن

نقتل مصداقيته!.. أن نحوله أمام قرائه إلى كاتب مبتز ومساوم حقير.. هنا سنقتل الرجل والفكرة معًا! كان حلاً عبقريًا تحمسنا له جميعًا وأمرت فورًا بالبدء في التنفيذ.. وكانت الخطوة الأولى ترتيب الإغراء الذي يدفعك لابتلاع الطعام ويشجعك على المضي في حملتك عن طريق الحصول على وثائق وسجلات تمدك بها مساعدتي الخائنة.. جلجلت ضحكاته الساخرة وهو يمضي يتبعه كلباه.. وعند المنحنى توقف واستدار إليه هاتفًا
- افحص حسابك بالبنك! حساب البنك؟! ماذا يعني الرجل؟ وما دخل حساب البنك بالـ.. توقف شاهقًا وهو يتذكر فجأة أنه رأى ضمن بريده الذي تركه ساعي البريد صباحًا تحت عقب الباب.. مظروفًا من البنك و لم يفضه لأنه يعرف ما به.. الوديعة اليتيمة ذات الخمسة آلاف جنيه.. والتي فتح لعوائدها حسابًا جاريًا يرسلون له حركته كل شهر! وعدًا كالمجنون وقفز في سيارته لتمضي به في سرعه إلى المنزل..

- أعاد فحص الرسائل الملقاة على مائدة المدخل.. وجلس يفض الظروف بلهفة.. ورأى المفاجأة وأحس بقطع الثلج تسقط في قدميه.

.. نخطركم بأنه قد أضيف لحسابكم مبلغ ثلاثمائة وسبعون ألف جنيه مصري لا غير.. المودع بتاريخ.. شهر.. سنة.. «هكذا تغلق الدائرة.. ولكن يقفز السؤال في وجهه ماذا ستفعل؟.. وكانت الإجابة السريعة: لا مفر! عليك أن تختار بين ثلاث سكك.. أن تسرع بإبلاغ النيابة عن

مجهولين أضافوا إلى رصيدك أموالاً لا تملكها بغية توريطك واتهامك.. أوتبادر بسحب الأموال والذهاب بها إلى العطوي وإلقاءها في وجهه.. وإبلاغه بأن سهمهم قد طاش.. أو مت.. تترك الأموال في مكانها.. وتنسى الأمر.. المهم أن لا تمسها أو تستخدمها!.. وكانت الاختيارات الثلاثة بكل تبعاتها وتفاصيلها وموازناتها هي الأفكار التي أرقته حتى الفجر.. و لم تفلته إلى النوم إلا مع صوت الآذان منبعثًا في مكبر الصوت من جامع «أم هاشم».



# سوناتا لتشرين (٢٠)

بطل الحدوتة في حكايا الأمس البعيد التي كانت ترويها الجدة لينام على إيقاعها الأطفال كانت تتضمن دائمًا ذلك الموقف الذي يواجهه البطل عند مفترق طرق ثلاثة.. سكة السلامة، وسكة الندامة، وسكة الضائعين، وحيث تجلس «أمنا الغولة» رابضة على مدخل المفترق، ولابد لكي تنال رضاها أن تبادئها بالسلام، فترد عليك لولا سلامك لأكلت لحمك قبل عظامك!! اذهب يا انسى من هذا الطريق وتشير له إلى سكة السلامة! وأنت لم تفعل يا أخ أشرف! نسيت الوصية السحرية و لم تلق على القوم السلام، فأشاروا عليك جميعًا بالاتجاه نحو سكة الندامة، وذهبت مغمض العينين، لم تتبين ملامح الغيلان فيمن أحاطوا بك، تقنعوا بملامح البشر، وأغروك لتنضم إليهم فتعاليت لتحقق نصرًا مهنيًّا ليس لأنك تحمل قلبًا صالحًا في حناياك، فأفقت وسط حطام الأحلام المنهارة يعلوك خزي الفخاخ المنصوبة حسنًا! ربما أخطأت لكنه خطأ مهني يمكن أن

يعرض لأي رجل في مجال عمله! فكيف يكون الجزاء بهذه القسوة؟ حياة كاملة بكل طموحاتها، وربما مضى منها في رحلة التكوين، وما بقى فيها مشروعًا للمستقبل، تذهب كالقشة تذروها الرياح في يوم عاصف؟ تلك الاتهامات الضالة التي تلقفتها الصحف وجعلت منك نظيرًا لأبالسة الجحيم، وهم يعلمون في صدورهم أنها محض أكاذيب لا تقوم دليلاً على سخافة وعبثية السعي البشري؟

وعلى أبواب النهار جلس إلى ذلك المقهى الظليل المستلقي على ضفة النيل يرشف قهوته ويقرر أن يقوم بحركة المقاومة الباقية لديه، وكان لابد من خلالها أم يمارس على نفسه قهرًا بالغ القسوة، وأن يفعل ما كره أن يفعله طوال مرحلة البدايات والاحتياجات، كان عليه أن يعرض نفسه.

«صحفي خال للإيجار» تلك كانت الحقيقة التي يحاول تجميلها وهو يلتقي زملاءه القدامى الذين يتولون مسئولية مكاتب الصحف الخليجية والعربية، أو حين يهاتف واحدًا من أصحاب الدور الصحفية الكبرى في تلك البلاد، وقد وعدوا جميعًا بالبحث والنظر! البحث والنظر قالها هو نفسه للشيخ «حارب الفتيحان» صاحب الدار الكبرى عمن لاقته في زيارته للقاهرة في الشتاء الماضي وطلب منه الشيخ أن يقبل رئاسة تحرير مطبوعته الجديدة عارضًا مقابلاً سخيًّا يسيل له لعاب أكبر صحفي في البلد، وكان العرض في التوقيت نفسه الذي بدأ فيه حملته الكبرى على الجرواني حتى ظن أن العرض محاولة «جروانية» من خلف ستار! يومها

قال لحارب الفتيحان: أعدك بالبحث والنظر جديًّا في العرض حتى أصل لقرار أبلغك به! وها هو يسمع الكلمة تتردد مكرورة! كلهم وعدوه بالبحث والنظر ثم إبلاغه بالقرار! ولم يكن لديه أمل حقيقي في أن يلقى مسعاه نجاحًا حقيقيًّا (أكثر من هاتفهم اهتمامًا بالرد عرض عليه أن يراسل مجلته في القاهرة وأن يوافيه بأخبار الفنانات!) وحين جاءه ذلك الخطاب الذي تبلغه فيه كلية الإعلام بأنها اختارته محاضرًا من الخارج لمادة «المقال الصحفي» تردد طويلاً.. فكيف يواجه الطلاب والطالبات بوجه أشرف عفيفي «الجديد»؟ نفس الوجه الذي أطل عليهم طوال الأشهر الماضية مغبرًا شائهًا، وبأي نظرة سيواجهونه.. «هل تصدقين يا صغيرتي أنك كنت العامل الحاسم في دخول التجربة؟ كنت في طريقي لمكتب العميدة لأقدم لها شكري وأعتذر وقد نويت أن أتعلل برحلة استشفاء للخارج لا أستطيع تأجيلها، وعند باب العميدة رأيتك تندفعين خارجة منه، وتهتفين لزميلة تنتظرك: أشرف عفيفي سيدرس لنا.. تصوري؟

كانت النبرة تهتز بفرحة حقيقية، والعينان تلمعان بوميض الاكتشاف! أتذكرين هذا اللقاء؟ لقد التفت لتفاجئي بي فندت عنك صرخة مكتومة ثم عدوتي بعيدًا، لحظتها أحسست أن كثيرين يمكن أن يبقوا في ذاكرتهم ملامحي القديمة، وأنني ربما وجدت لدى هؤلاء بعض العزاء».

امتدت أصابعها لتوقف شريط الكاسيت. وقد غمرتها مشاعر الدهشة والارتباك (هو يذكرني منذ البداية.. ويحفظ في ذاكرته صورة لقائي

الأول معه.. فلماذا أنكر حيث التقيت به أخيرا في أروقة المؤتمر). أراحت رأسها إلى مسند الأريكة العريضة المجاورة لباب الشرفة، كانت نسمات باردة تنشط لتثير حفيف شجرة الماجنوليا بجوار السور، أغمضت عينيها ثم فتحتهما مديرة رأسها لتنهمر أشعة القمر على شعرها الفاحم، وهي تشرد سابحة فيما كانت تسمعه بصوت أشرف عفيفي، وكيف استغرقتها حكاياته حتى أقلقت الأهل والرفاق بانكبابها عليها، تسمع ثم تكتب لساعات طويلة، يغلبها النوم أحيانًا فيسقط القلم أو يكر الشريط لنهايته، وحين تستيقظ ينتابها الوسواس فتعيد سماع ما سمعت ثم تعيد قراءة ما كتبت! هل يكون الصوت هو السر؟ هل يكون ما ألم بها نوع من إدمان سماع صوته؟! أم هو الإحساس بالاقتراب الذي لم تشعر به تجاه قريب أو صديق أو حتى تجاه فتاها المختار (كان الجميع يعتبرانهما خطيبين) لكن نبرات وتعبيرات أشرف عفيفي وهو يتلو اعترافاته وحيدًا، أمام جهاز التسجيل وحتى سعاله، كلها كانت تشكل لها حالة من الاعتياد المصحوب بحذر الاطمئنان والركون إلى مشاعر حميمية، تذكرت أيضًا، ولا تعرف لماذا لم يتذكر هو بينما يروي قصة لقائهما عند مكتب العميدة، كيف كان يناديها في محاضراته بالحوراء! وظل يناديها به حتى أصبحت مثار سخرية الزملاء والزميلات، فاحتجت باكية آخر مرة وهي تطلب منه أن يكف عن مناداتها بهذا الاسم، وفي هدوء سألها: أتعرفين معناه؟ - لا أعرف وكلهم يعيرونني بأنه يعني «الحولاء »- فقط ليثيروا غضبك.. إن الحوراء هي التي يصف المتنبي عينيها قائلاً:

إن العيون التي بطرفها حور.. قتلننا ثم لم يحيين قتلانا والحور يا عزيزتي هو شدة سواد إنساني العين في شدة بياض المحجرين! وأرجو ألا تسأليني عن معنى الإنسانين والمحجرين لأني لن أجيبك وسأطلب منك البحث في القاموس.

وسكت لحظة رمقها بعدها وكأنه فصلها عن الجميع وخصها برسالة غير منطوقة.. ترى.. هل يذكر؟ وإذا كان يذكر فلماذا لا يقر ويعترف؟



# سوناتا لتشرين (٢١)

مساحة من الصمت رانت على الشريط الدائر وكأنه ينصت لأفكارهما، وحين عاد الصوت بدأ وكأنه يكمل حديثًا لم يسجل لعطل ما، وخشيت أن يتكرر في مساحات قادمة فتكثر الفجوات ولن تجرؤ على الاتصال به فقد حذرها وهو يسلمها الشرائط.. أن لا استفسارات ولا إيضاحات.. ولا مراجعات.

لم يمر زمن طويل قبل أن يدركه السأم و«بعد كورس» واحد أيقن أنه لن يستطيع الاستمرار، كان المكان يخنقه، ليست الجامعة بالذات لكن المدينة بأسرها، القاهرة التي أحبها وأعطاها كل سنوات عمراه، وتقلب في حواريها ومرابعها، وخادن نبلاءها وأوغادها، وشهد انتصاراتها وانكساراتها.. هذه القاهرة لم تعد بعد مدينته كما صارت مملوكة لسادة من طينة أخرى جرى خلطها وعجنها على أرض غريبة موحشة لا تنمو فيها إلا أعشاب الملح وحسك الصبار! قهرته المدينة التي عشقها فبات

لزامًا عليه أن يهجرها، «لقد نبا بي حضنك، وأنكرتني أنفاسك، وألقيت إلى الذئاب والضباع والكلاب التي تقفز من فراشك كل صباح، وحين اتخذ قراره بادر إلى اتباع طقوسه.

جمع تذكارات الأب والأم في صندوق أودعه بيت شقيقته الكبرى، وترك لها مفتاح الشقة التي كان قد اشترى أنصبة الورثة فيها، وأعطاها توكيلاً قانونيًا لتبيع الشقة في أي فرصة تسنح وذهب إلى مسكنه الخاص في المعادي وانتقى ما يمكن حمله ثم عرج على شقة الزوجية بعد أن أخبر الزوجة المنفصلة واستأذنها في أخذ تذكارات معينة (أنت راحل إذن؟ أجل سأرحل! هذا أفضل فكل ألسنة الناس تلوك أخبارك الفضائحية)، لم يرد عليها و لم يناقشها، فرائحة التشفي والشماتة تفوح من كل حرف نطقت به، لا بأس، فتلك أخر حقوقها المؤجلة! وكانت الحبيبة هي ختام الجولة، شاء أن يكون تذكاره الأخير وداعًا رومانسيًا رقيقًا يتضوع شجنًا وتبلله الدموع، وأرادت هي شيئًا آخر؛ فقد بادرته بإعلان رغبتها في إنهاء علاقتهما وتمنت عليه ألا يحاول رؤيتها مرة أخرى.

أخرج من ربوعك بلا زاد يملأ فمي طعم الرماد ويخنقني ما ملأ صدري من دخان، أيمم شطر البحر حيث توجد هناك -في مكان ما- صدفة أختبئ فيها.. ومن يدري فربما صرت مع الأيام التي تتراكم حولي ذرات رمال، ربما صرت «لؤلؤة » أضحكه الخاطر لدرجة الحزن لكنه

وجد صدفته بلا جهد كبير، واستقر في الشارع الجانبي الضيق الذي ينحدر نحو طريق الكورنيش على ضفة المتوسط الجنوبية!

لم تكن علاقته بالإسكندرية وثيقة، و لم تتعد الزيارات الصيفية السنوية وكانت في أغلب الأحيان زيارات خاطفة سريعة لا تتيح له أن يوطد علاقته بالمكان وفي السنوات الأخيرة اتجهت هذه الزيارات غربًا إلى مغاني الساحل الشمالي الجديدة التي ارتبط بها مقياس الحداثة والفخامة وأصبح الحصول على لقب «ماريني» أو «عجميست» أشبه بالحصول على ميزة اجتماعية تضع صاحبها في شريحة «خاصة» من شرائح المجتمع المخملي إياها، لكنه لم يستمتع و لم يقتنع، وتمنى دائمًا أن تتاح له ظروف تجيء به إلى الإسكندرية في الشتاء، قالوا له جميعًا: إن جمال المدينة لا يتبدى ولا يتألق إلا في الشتاء، وإن السكندريون الحقيقيون لا يحبون «إسكندرية الصيف» وانتهاكات المصيفين ويعتبرونه فصلاً شائهًا زائفًا.

لكنها يا صغيرتي مدينة الفصول الأربعة! وبعض من خفايا أسرارها المكنونة هي تلك الخاصية الغريبة التي تجعلها قادرة على أن تريك في يوم واحد تقلب الفصول الأربعة! أعشقها في التشرينين، وبدأ عشقي مع عامي الأول داخل الصدفة، كانت أيام أكتوبر الأخيرة، حين تسارعت الرياح وهطلت الأمطار! أيها السادة هناك خطأ جغرافي واضح، فجدول العواصف أو «النوات» الذي طبعته ووزعته القوات البحرية يذكر أن أول نوات الشتاء تأتي في نوفمبر واسمها «نوة المكنسة» ابتسم صديق المقهى

العجوز وصحح لي معلوماتي هذه ليست المكنسة يا أستاذ! ولن تجدها في الجداول المطبوعة، إنها نوة «غسيل البلح».

والليلة المغسولة بأمطار البلح كانت مفتاحًا لاكتشاف كافأته به شهور المحنة.

الرصيف يلمع ببحيرات مياه قزمة تكونت في الفجوات وباب «الرستوران» الفخم يفتح لتخرج منه في كامل أناقتها، يرفع لها سائق مظلة تحميها من الأمطار، تضع على رداء السهرة معطفًا باهظًا من الفراء لعله إحدى فراءات «المنك »أو «الاستراخان» أو «الشنشيللا» وأسرع حامل المظلة يفتح لها باب السيارة الفارهة.. هي بلا أدنى شك!

تسمر مكانه كالمسحور ولم يعبأ بخطوط المياه تتسرب من رأسه إلى ظهره والبرودة تتحول إلى حمى تناوشه، وبينما كان السائق يدور حول السيارة ليفتح بابه أفاق هو من صدمة الاكتشاف والتعرف وبقفزة واحدة ألقى بنفسه أمام مقدمة السيارة لم تحركه ارتجاجة تشغيل المحرك ولا أضواء المصابيح الأمامية، ولا صرخة التنبيه الغاضبة المنذرة، والمياه المنهمرة على الواجهة الزجاجية لا تتيح له أن يرى من بداخلها بعد عدة صرخات من آلة التنبيه هبط السائق بنفسه ليجار بالصباح: اتحرك يا أفندي وأبعد عن طريق السيارة! لم تكن هناك مساحة في الخلف يناور منها السائق ليتفاداه، كما لمح أيضًا نظرات الإصرار في عينيه.. أخيرًا نادته من الداخل:

– عثمان! دعه يركب!

وكان صوتها هو فصل الخطاب.. فلم يتردد لحظة حين فتح له السائق الباب الخلفي ودعاه ليتفضل:

– إلى أين يا هانم؟

– عادي يا عثمان.. البيت!

طوال الطريق لم توجه له نظرة واحدة، ولم يحاول هو أن ينطق بحرف، لكن ضربات قلبه كانت تدق في أذنيه، وكانت أنفاسه تتلاحق في شهقات وزفرات سريعة متتابعة.

كانت تدخن سيجارتها وتعبر بعيناها الطريق؛ حيث تكاثفت الظلمة، وبدا أن السيارة قد تركت المدينة وأمضت في طريق الغرب، متجهة إلى نقطة الفصل والمفارقة في تاريخ أشرف عفيفي.



# سوناتا لتشرين (٢٢)

الآن.. ما الذي يدور بخلدك؟

ما زال الجو يمطر في الخارج.. ويدفع زخات ملتوية من الرذاذ «تقتحم باب» هول «الاستقبال الذي لم تعن بإغلاقه حين دخلا مسكنها.. فيلا صغيرة على البحر في قرية من تلك القرى التي تناثرت بطول الساحل الشمالي غرب الإسكندرية تتسم بالأناقة ورقي الذوق رغم مظاهر الفوضى التي تشير لحياة بوهيمية غير منتظمة.. قاطع سؤالها بسؤال.. من أين لك هذا؟»

ولأمر ما لم تشأ أن ترد.. وحين لمحت ضيقه من رذاذ الماء لدى تدفق الرياح عبر أبواب «التراس» المفتوحة هرعت وهي تعتذر لتغلق الجرار الزجاجي العريض: ملابسك أيضًا مبتلة بشدة وشعرك ووجهك تبدو

كمن نجا لتوه من سفينة غارقة.. ما رأيك في حمام دافئ وملابس جافة وفراش وثير تمضي فيه ليلتك حتى الصباح؟ ولا تدع ظنونك تقودك بعيدًا.. فليست بي رغبة فيك ولا أنوي التحرش بك..

كانت ضحكتها الصاخبة تحرضه على التحدي.

ألديك منامة تناسبني؟ وتلقفت القفاز على الفور.. كل المقاسات والأنواع يا عزيزي ورمقها سافرًا ليلمح نظرة التحدي في عينيها تنتظر سؤالاً وقحًا لابد منه (كأنك تنتظرين كل الرجال؟) لم ينطقه ولكنها فهمته غالبًا من الضحكة الخافتة المبتورة، وذلك التعبير الكابي في عينيه.

أو تظنين أنني سأشعر بالأمان، وأغمض عيني على أحلام هانئة وأنا في فراش الأعداء؟

- أنا لست عدوتك! ولم أقم بدوري في خطة الإيقاع بك عن اختيار.. فقد كنت مجبرة.
- مجبورة أم مأجورة؟
- أو تظن الفارق كبيرًا؟
- كالفارق بين الإيمان والكفر!
- إذن ففي كلا الحالين لا أضمر لك سوءًا من وجهة شخصية.. فقد انتهت المهمة ولم يعد هناك ما تخشاه مني!

لم يكن ما ساوره نوعًا من الاستسلام للإغراء ولا كان استجابة لرغبة دفينة في الانتقام.. كان ضربًا من محاولة الإبحار مع التيار بحثًا عن مرفأ ترسو عليه سفن المنطق لتجلي كنه العمليات والأسئلة الملغزة.. ترك نفسه لما تريده مضيفته (سأعرف حتمًا ماذا تخفين.. ولماذا أتيت بي إلى هنا).

وفي الفراش الوثير.. ضمه دفء حميم.. وراح يغالب حاجتين تتنازعانه جوعه الضاري.. ونعاسه الملح.. حين أطلت هي من فرجة الباب.. أنا جائعة.. هل تشاركني الطعام؟ وحين أبدى تفضيله للنوم رغم جوعه قفزت وسحبته من يده لتصحبه إلى ركن في حجرة معيشة شتوية يغمرها الدفء وتتناثر في أرجائها الوسائد والنمارق تتوسطها مائدة منخفضة ذكرته «بالطبلية» في بيت خالته القديم في شبين الكوم! لكنه ظل مقيمًا على تلك الحافة بين الصحو والوسن حتى لقد فطن بعد حين إلى أنها هي التي تطعمه وتضع اللقيمات بيدها في فمه.. (هل يمكنك أن تنسى المرأة القديمة التي استؤجرت للإيقاع بك؟ وتفتح معي صفحة جديدة لا تشوبها ذرة من غبار الماضي؟ أنا في حاجة إليك.. وإحساس بأن هناك قدرًا جمع بيننا لأمر ما بدا مدبرًا واتصل الآن لحكمة لا ندركها يدفعني لأن أتشبث بك.. وظني أنك تحتاجني بنفس القدر.. أعلم أن أسئلة كثيرة تصطخب بداخلك وتضعني في موقع الشك.. ولن أستطيع الرد أو التبرير بلساني.. وأعتمد على إدراكك للقصة كلها وأريد أن أجيب عن السؤال الذي أحسب أنه أكثر ما يلح بخاطرك الآن هذه الفيلا الأنيقة ليست مستأجرة.. هي ملكي ومعها السيارة.. ورصيد بالبنك يكفيني

لمعيشة رغدة طوال ما بقى لي من عمر.. وها هو سؤالك الذي بدأت به ليلتنا و لم أجب عنه يطوف الآن في عينيك! من أين لك هذا؟

أومأ برأسه إيجابًا وانتظر تشاغلت هي للحظات في إشعال سيجار.. شردت مع أول أنفاسها المنعقدة خيطًا ملتويًا من دخان ثم خرجت إجابتها موجزة باترة. (هو ثمنك).

ثمني؟ تقصدين أن هذا ما دفعه لك الجرواني مقابل اشتراكك في خطة تدميري؟ إذن فهو سعر مغر لا عجب أن يسيل له لعابك!

- ولكنه كان مشروطًا بأن أختفي تمامًا وأقطع كل صلاتي بالقاهرة، وأن أتقمص حياة أخرى جديدة لا علاقة لها بهويتي الأولى.. مع وعيد صريح بأنني سأظل مراقبة وأن أعوانًا لهم لا أعرفهم سيكتمون فى الظلال حولي وسيحصون على خطواتي.

ماذا تعنين؟ هل يعرفون الآن أنك التقيت بي واصطحبتني إلى هنا؟

- بالطبع وقد حرصوا على إعلامي بأنهم يشاطروننا الليلة.. وحين كنت في الحمام تحدث إلى أحدهم شخص لا أعرف منه غير صوته وكان يحذرني بالانتباه إليك فربما كنت تنوي الانتقام مني وإيذائي.. كما ذكرني بأنني قد التزمت الصمت وعدم الكلام فيما حدث!

– لا أظنك جادة.. تقولين هذا فقط لإثارة مخاوفي حتى أصرف النظر عن محاولة المساس لك لعلمي بأنهم قريبون مني بهذا القدر..

ضحكت واعترفت بأن هذا ما عنته فعلاً ثم هرعت إلى «دسك» الأسطوانات ووضعت أحد «التانجوهات» ودعته إلى الرقص! وهي ليلة.. مهما كان ما بعدها فلماذا لا تمضين مع التيار لآخر المدى.

داعبت ذاكرته قصيدة جورج جرداق التي غنتها أم كلثوم.. «في ديار كانت قديمًا ديارًا» ستراها.. كما ترانا قفازًا.. سوف تلهو بنا الحياة وتسخر.. فتعالى أحبك الآن أكثر.

راقصها في التحام المتشبث بقدره.. ولم يكف حتى أحس بالدوار.. ربتت على خده بشفتيها هامسة..

تريد أن تنام.. تعال.

ولم يعد يذكر شيئًا حتى أدركه الصباح. واكتشف بعد النظر إلى ساعة يده أنها الظهيرة.. وناداها.. ثم بحث عنها.. ولكنها لم تكن موجودة..



# سوناتا لتشرين (٢٣)

.. يتكرر الحلم - الكابوس - كل ليلة وأفيق منه غارقًا في عرق غزير ينساب من مسام جسدي كله فأخال أنني مصاب بالحمى.. وفي إحدى الليالي أيقظني صراخها.. نعم سمعته بأذني رغم اكتشافي أنه أنا من يصرخ!

هل جننت؟ أم تراه إحساس بالإثم يراودني ويضغط على أعصابي؟.. لا شك أنه كذلك فقد سلط عليَّ ذلك الهاتف الغامض الذي يوسوس لي في إلحاح كلما برح بي الألم..

.. لا نجاة لك إلا إذا تغلبت على ضعفك وتساميت إلى امتلاك قدرة إرادة شجاعة تقطع باليقين كل نوازع الهروب الكامنة في بشريتك الفانية!

هيا.. افعلها وانج بنفسك واغنم احترامك لذاتك فهو المربع الأخير الذي بقى لك! ».

وذهبت إليهم وألقيت باعترافي! أنا الفاعل المجهول في جريمة الشاطئ وسردت كل التفاصيل منذ مساء الليلة الماطرة وما تلاها إلى الصباح.. وجدتها على حافة المياه فوق رمال الشاطئ.. وما أظن إلا أنني من فعلها! «واتبعت اعترافي بوصف دقيق لمداخل الشاليه وتفاصيل حجرة النوم والحال التي تركتها عليها، لكن دائرة الجنون كانت قد أغلقت و لم يعد بها منفذ للإفلات! واجهني المحقق بأنه لا يوجد أي دليل أو قرينة أو حتى أثر يشير إلى صحة زعمي! فامرأة بهذا الرسم، وبتلك الصفات والملامح لم يعثر لها على جسد ولا على موجودات يمكن أن تنسب إليها، والشاليه المذكور مسجل باسم رجل يعمل في الخارج ولا صلة تربط بينه وبين الضحية المزعومة! وحاولت أن أجادله وأنا أقسم لكل المقدسات ولكنه أنذرني بلهجة ملل..

- يا أستاذ! أنت صاحب اسم نعرفه جميعًا وكنا من قرائك.. ونحمل لك قدرًا كبيرًا من الاحترام.. ونحن نلم بأطراف ما حدث في قضيتك الأخيرة ونقدر أنها ولا شك أصابتك بجراح لا يسهل البرء منها ولكن.. ما تدعيه على نفسك الآن ليس إلا وهما هيأه له أو هيأك له نوع من الاضطراب النفسي.. لذا أنصحك بأن تستشير أخصائيًا نفسيًا.. وأرجوك.. لا تعاود الادعاء مرة أخرى

وإلا اضطررت لتحويلك إلى مستشفى حكومي يقطع بحالتك العقلية!

هو الجنون إذن؟! قال لي أستاذ الطب النفسي الشهير إنه مجرد اضطراب مؤقت نتج عن تعرض طوال الشهور السابقة لضغوط نفسية لا قبل للإنسان العادي بها ولذت له فكرة الوهم فانطلق خلف تداعياته..

- تعرف؟.. أظن أنك فوجئت بامرأة تشبه صاحبتك كثيرًا وملأت حالتك النفسية كل الفراغات التي تفصلها عنك فاستقر في رأسك أنها هي.. وخلق لك ما تكنه لها في عقلك الباطن من رغبة ومن ميل للانتقال خيالاً تحقق فيه ما أعجزك عنه الواقع قاطعته في ضجر: يا دكتور! أنا لست مريضك حتى تمارس عليَّ ترهاتك فكف لو سمحت عن اختراع أوهام تلصقها بي! هذه المرأة حقيقية. وما حدث بيننا ليلة المطر حقيقة! وغيابها في الصباح حقيقة.. ووجودها على الشاطئ صريعة حقيقة! كلها حقائق إذا لم ترد أنت ومحققو الشرطة أن تصدقوها فأنتم الواهمون وليس غيركم!

رمقني بإشفاق عالم الأحياء الذي يراقب ضفدعة أتم تشريحها في معمله.. وأدار لي ظهره وهو يضغط على زر الجرس طالبًا دخول المريض

التالي.. وخرجت من عيادته لأسقط في صدفتي مريضًا.. يجد هذه المرة.. لا أذكر كيف بدأ سقوطي في بحران الحمى ولكني تنبهت على صباح حار.. وبجوار فراشي يجلس جاري في المسكن - بحار عجوز متقاعد- يبتسم لي من بين شاربه الغزير المتصل بلحية كثة والمصفر من حوافه نتيجة سنوات تدخين طويلة: كان يبتسم مراقبًا إفاقتي: حمدا لله على السلامة!

سألته عن تفاصيل ما يعرفه عن مرضي فأخبرني أن الأمر حدث منذ ثلاث ليال حين وجدني ملقيا أمام باب الصدفة - مسكني - مغشيًا عليَّ.. وقد وجد مفتاحها في جيبي وأخبره الطبيب الذي أحضره أن ما بي نوع من الحمى سيزيله للعلاج بعد يومين!

وبنظرة تلمح فيها شقاوة طفولية ماكرة همس مشاغبًا: لازمتك طوال تخاريف الحمى وسمعت كل شيء!

حققت به النظر و لم أدر عن يقين هل كان يعابثني؟ أم أنني أسرفت في سرد اعترافاتي...و لم أعبأ.. فأنا أبحث عمن يصدق! كل ما كان يضايقني إحساس بأن هناك من اقتحم عزلتي وفرض وجوده عليَّ بحكم عجزي وضعفي.. حاولت أن أنهض. لكن خورًا أصابني بالدوار فعدت إلى الرقاد مستسلمًا.. وأغمضت عيني متظاهراً بالنوم.. وهمست له: شكرًا على ما فعلته من أجلي.. وقد عوفيت وأستطيع أن أتدبر أموري فأرجو

أن تتركني وتعود لمسكنك ولحياتك الخاصة! أشعل غليونه.. وألقى بعود الثقاب في منفضة السجاير..

- سأتركك بعد أن يأتي الطبيب هذا المساء ويقرر! إذا كنت تريد أن تنام فافعل ولا تهتم لأمري سأذهب إلى المطبخ وأعد لك «شوربة الخضر» التي نصح بها الطبيب وسأقطع لك فيها لحم فروج صغير!

وفي الإغماضة كان الفراغ الأسود تتقاطع فيه نقاط وخطوط بيضاء وحواف قزحية.. وكان الصوت يرن في أذني عطفًا على حديث الخضر المعد على لحم الفروج..! استضعفوك فوصفوك.. فهلّا وصفوا شبل الأسد.. «أليس هذا هو قول أبي العلاء؟ »

ثم امتلأ الفراغ بصورتها.. تضحك كما ضحكت في ليلتنا اليتيمة.. وأحادثها بكلمات لا أسمعها ولكنها تسقط بداخلي كقطع ثلجية تذوب قبل الارتطام.. وترد هي بكلمات تدبلج بزقزقة عصافير.. أراها ولا أسمعها.. أسمع فقط أغنية.. يتخللها مقطع يردد إلقاء بلا لحن مصاحب.

**إن كان ذنبي أن حبك سيدي**

**فكل الليالي العاشقين ذنوب**

**أتوب إلى ربي وإني لمرة**

**يسامحني ربي إليك أتوب**

ثم اكتشف بعد هنية أن الصوت لم يكن صادرًا من فراغ الغنوة.. ولكنه قادم من المسجل الذي أداره ممرضي المتطوع..

**يا شقيق الروح من جسدي..**

**تطيق الإغفاءة وترحل بي إلى لقياها..**

# سوناتا لتشرين (٢٤)

وحدي أملك اليقين! وحدي أعرف الحقيقة! لكن يقيني يساوي الوهم، وحقيقتي لا تعدو أن تكون ضلالة عقل مخدوع إذا لم ير الآخرون ما أراه، أو عرفوا ما أعرفه، وما أظنني إلا من الهالكين لولا أن يقبض لي ما ينتشلني من بئر سقطت فيه وظللت أهوي من ظلمة إلى ظلمة دون أن تلمس قدماي قرارة القاع، وحين حاول جاري - ذلك البحار المتقاعد- أن يناولني طوق نجاة لم يفلح إلا في دفعي إلى الغوص أكثر باجتذابي إلى عوالم ذكرياته عن غزوات المرافئ، ومغامرات النساء! بينما كنت أغوص وأستلمح الغوص نبهتني كجرس إنذار مفاجئ تلك الدعوة التي جاءتني على الهاتف.

أحد رفاق الدرب القدامى بدأت بيننا صداقة في مرحلة البدايات، ثم فرقتنا المنافسة المهنية خاصة وقد جمعتنا دار صحفية واحدة، وكان درب

الصعود فيها ضيق لا يسع لكل المتبارين ولابد أن يزيح واحدنا منافسه بالكتف «القانوني» أو بغيره؛ فالغاية هنا كغانية لا تمنح نفسها إلا للجسور المقاتل الذي يؤمن بالانتصار! وقد استطعت أن أزيحه عن الدرب ضاربًا بكل اعتبارات الصداقة عرض الحائط بل لم أتورع حين فعلت أن ألفاه معتذرًا وأناشده أن يتقبل الهزيمة بروح رياضية متسامحة لتظل صداقتنا قائمة! ويومها لم يجب على الخطبة العصماء التي ألقيتها على مسامعه، نظر لي فقط وعلى وجهه ابتسامة لم أر مثلها كثيرًا على وجوه من عرفتهم، كانت ابتسامة تجمع في ثناياها بين السخرية والتسامح وعدم الاكتراث المصنوع، لعله بدا في تلك اللحظة وكأنه نسخة من تمثال «للجوتاما بوذا» ولم نعد نلتقي وتحاشينا الصدفة، ومرت مياه كثيرة تحت الجسور، وأكملت مسيرتي الظافرة حتى كان ما كان.

وها هو يهاتفني.. ظل يبحث وينقب حتى حصل على رقم هاتف الصدفة.

- لابد أن تعود! أعرف أن قضية الجرواني قد أصابتك في مقتل، لكني أعرف أيضًا أنك أقوى كثيرًا مما تظنه في نفسك. فانفض عن نفسك غبار العزلة، وتهاويم المرارة، وانهض لتمتشق قلمك.
- ماذا أغراك لتتصل بي وليس لديَّ إلا متاع الهزيمة.
- اسمعني! لا أحد يعرفك مثلي.. وإيماني بك كصحفي موهوب لم يتزعزع لحظة.
- أهي مواساة غريم سقط عن فرسه؟

- أتظن أنني أواسيك كنوع من التشفي والانتقام لهزيمة قديمة؟ أنت بذلك تظلم نفسك قبل أن تظلمني ولن أجادلك الآن في ظنونك، سأقدم لك عرضي لتفكر فيه الليلة وتوافيني بردك غدًا، سأصدر قرارًا بتوليك شئون الجريدة في الإسكندرية. وأعهد لك بأولى مهامك الجديدة وهي تغطيه المؤتمر الدولي المنعقد بمكتبة الإسكندرية عن ثقافات الأقليات العرقية في جنوب المتوسط وفي نهايته ستوافينا بتقرير شامل ومفصل عن فعاليات وقرارات المؤتمر، وتعليقك الشخصي عليها، فكر جيدًا، وإذا أجبتني بالموافقة غدًا سأنشر تنويهًا في الصفحة الأولى أعلن فيه عن عودتك!

وهكذا قيض لي ما يرفعني من قرارة البئر!! استيقظت بداخلي كل حواس الصحفي الذي كان، ولاح أمامي على مدى البصر بارق التحدي.. أتراك قادرًا على هزيمة من أرادوا لك نهاية الخاسرين؟

هذا ما حدث يا صغيرتي.. وأنت تعرفين ما بعده.. وما زلت لا أعلم سر إحجامي عن كتابة ما رويته لك على أشرطة المسجل! هل يمكن أن تشكل الكتابة عبئًا أبهظ على كاهل المذنب؟ وهل يعتبرها مرونة باقية تطارد سيرته؟ ربما؟ وربما خجلت مما يبدو في الاعتراف المكتوب من «عمدية» وقحة! ولا أعلم أيضًا لم أنت بالذات؟ فواقعة التعارف القديم شاحبة في ذاكرتي، لكن شيئًا قد توهج في الرماد الكثيف، وفوجئت بك تشعلين الجمرات بأنفاس لاهثة ملحة! وكانت التماعات الوهج أشبه

بإنذارات الخطر تومض في عيني! هل تعجبين إذا قلت لك إنني أحسست بالخوف منك؟ تلك حقيقة اقترب بها من نهايات ملكك، واعتبري صوتي الذي تسمعينه الآن توقيعًا قانونيًا يأذن لك بأن تفعلي ما ترينه حيال المادة المسجلة! كوني بخير.. ولا تحاولي أن تلتقيني.. هذا شرطي الذي وافقت عليه.. وأطالبك باحترامه..

كنت في الدائرة التي تحمل الشريط عند الدوران، وبيد مرتجفة ضغطت على زر الإيقاف.. وساد الحجرة صمت راكد له طنين! كانت تعلم أن الطنين في أذنيها فقط وأنه يتوازى مع «زنة » في أصابعها تشبه الصوت المنبعث من كشك الكهرباء الرابض على ناصية الشارع «صمت الصوت أخيرًا..» وكأن الحزن المشوب باللوعة هو الانطباع! نهضت بقصد تحريك أعضائها لتلاشي ذلك «التنميل» في أطرافها، كانت الليلة خريفية، ومن النافذة المفتوحة تتسرب نسمات باردة مختلطة برائحة ياسمين قادمة من شرفة الجيران.

- لم أكن أريده أن يكف ويصمت! كنت أتمنى أن يظل في رواية حكايته إلى ما لا نهاية، تعلقت بنبرات صوته وأظنني أدمنتها!

ضحكت صديقتها التي تحدثها على الطرف الآخر للهاتف.

- الشرائط لديك فأديريها.. كلما استبدت بك الرغبة لسماع صوته!

- ليس هذا ما عنيته! ويبدو أنك لا تستطيعين فهمي.. أريد الاستمرار.. لا التكرار.
- تريدين الاستمرار في سماع صوته أم الاستمرار في متابعة حكايته؟
- أريد أن يتحدث إليّ دائمًا.. ومجددًا.. وحاكيًا.
- ولم لا تصارحين نفسك بأنك تريدينه في حياتك؟ تريدين الرجل وليس الحكاية!

هرعت إلى النافذة المفتوحة وفتحت رئتيها لشهيق عميق مغالبة وتعرضت أطراف وجهها إلى لسعة برودة فجرية طوفت على تجمع الالتهاب الانفعالي في الأذنين والأنف والشفتين فصنعت تلك النشوة التي أغمضت لها عيناها لتوشي ظلمة الليل الساجي بألوان قزحية راقصة.. وتفيق لحظة أن تناهى إليها صوت المسجل لدى جار يعشق السهر مع صوت فيروز.. كانت تغني أهزوجة عبد الوهاب القديمة:

أنا زارني طيفك في منامي قبل ما أحبك.. طمعني في القرب وفاتني وأنا مشغول بك!

أحقًّا.. تراها رسالة.. أم عبث الصدفة؟ أم وعد مخبوء في رحم الغد؟ وكان عليها أن تعرف الإجابات الصحيحة.



# سوناتا لتشرين (٢٥)

لم يكن ما فعلته مفهومًا أو مبررًا في نظر الجميع؛ بل كان الاستهجان المبطن والاستنكار المعلن هما القطبين اللذين تأرجحت بينهما ردود الأفعال التي أعقبت خبر رحيلها المفاجئ إلى الإسكندرية بلا سبب ظاهر أو تبرير يفسر الأمر للأسرة على الأقل.. وحين ضيق شقيقها الأكبر عصام خناق الاستجواب عليها لم يلق غير إجابة واحدة..

- أنا ذاهبة خلف قصة ستضعني على الطريق! فرصتي ولن أفلتها مهما كان الأمر..

وحدها صديقتها لم تقبل الإجابة و لم تصدقها..

- القصة كاملة لديك وبمجرد تفريغها من الشرائط الصوتية المسجلة

على الورق ستصبح «الخبطة الصحفية» متوافرة الأركان!! أعترف بأنك ذاهبة خلف الرجل لا القصة!

بتعاسة اعترفت لها بالحقيقة وائتمنتها على سرها الصغير، فأتاحت لها أن تتخذ سمت الناصحة المشفقة: احذري أن تستعذبي الخوض في الرمال الناعمة.. وأن تخلطي الافتتان بالحكاية المسجلة على الشريط بالافتتان بالرجل نفسه! لأنك لن تجدي في النهاية غير قبضتين من ريح وتراب تذرو الأولى ما تجمعه الثانية..

تذكرت كلمات صديقتها وهي جالسة في شرفة الفندق الصغير المطلة على حوض الميناء الشرقي.. تفكر في خطة بحث توصلها إلى صومعة الأستاذ! وقالت لنفسها: «فلأملأ قبضتي أولاً يا عزيزتي بأي شيء حتى لو كان ترابًا.. فلحظة امتلاكه تستحق أن تعاش حتى لو جرفتها بعدها قبضة الرياح»، لم تكن تعول كثيرًا على آراء «سناء» برغم اعترافها لها بسبق الثقافة والإصلاح.. وإقرار الجميع لها بأنها «الدماغ».. وكن يصدعن دائمًا بما تشير عليهن برغم ما يتأكد لهن كل يوم من أن باب النجار «مخلع» وأنها لا تكاد تنجو من حفرة حتى تتعثر في منحدر.. وعلى كثرة ما ارتبطت بعلاقات ومشروعات عاطفية خرجت في كل مرة بجعبة خاوية وفم مليء بالمر والحنضل، لكن ميزتها العبقرية كانت في قدرتها على تحويل «الهزيمة» إلى حدث عادي يمكن أن يتكرر يوميًا دون أن يسبب كارثة أو يصنع مأساة.. وتذكر هند الآن كيف بادلتها نصيحتها بالسؤال المنطقي الذي

عن لها ساعتها كبارقة الحقيقة: «لم تريدين منعي من خوض تجربة وأنت تخوضين تجاربك بلا انقطاع؟ تزعمين أنك تريدين حمايتي مما تتعرضين له؟ ومن أعطاكي الحق في اتخاذ قرار الحماية؟ كنت ترددين دائمًا عقب كل تجربة فاشلة أنك تستمتعين بالفشل قدر استمتاعك بالنجاح.. فلم لا أستمتع أنا الأخرى بثمار تجربتي أيًا كانت؟».. وابتسمت حين استعادت صورة وجه سناء وقد تقلص غاضبًا والتوت قسماته في اشمئناط وهي تنهي النقاش زاجرة، وإياك أن تعودي من الإسكندرية باكية وتركعي أمامي نادمة معتذرة فلن أرحمك! .

انزلقت قطرات طائشة من محاولة خريفية ماطرة علي كفيها المستندتين إلى سور الشرفة.. فرفعت رأسها لتتلقى قطرات أخرى على جبينها و لم تشأ أن تنسحب.. وتمنت أن يتحول القطر إلى غيث ينهمر.. ستغتسل في الشرفة.بمياه الأمطار.. ثم تتبعها بحمام دافئ تلجأ بعده إلى فراش وثير يتيح لها أن تهجع مع أحلامها أو كوابيسها كيفما اتفق.. لكن الديم لم يتصل و لم يصنع غمرًا.. فهو خريف الإسكندرية سرها المراوغ العتيق الذي يتخمر وئيدًا في خوابيها ليصنع شرابها المسكر حلالاً متاحًا للظامئين! تفلت أيام التشرينيين من ربقة الصيف المنصهر في الرطوبة والضباب ومن لهفة الشتاء الجائع الكامن في الأكناف ينتظر.. لنصنع من نسيج الربقة واللهفة معبرًا يهدهد خطوات الهاربين والحالمين.. عبره «الأستاذ» هاربًا.. وتتبعه الآن «حالمة».

. . . وعبر حلكة الليل الذي لم تبدده أنوار محطة الرمل الليلية ولا مصابيح القوس الممتد بطول الكورنيش إلى شرق المدينة.. أمعنت عيناها تبحث بدافع التمني عن لحظة إلهام تشير لها على مكان «الصدفة».. والصدفة التي وصف بها مسكنه لا يمكن أن تكون على قرب من البحر.. بل أغلب الظن أنها صدفة متقوقعة داخل أحشاء المساكن المجاورة والمتلاصقة في أحياء «الرمل»الداخلية! والمشكلة أنه لم يشر بحرف إلى المكان أو الشارع أو أي «أمارة» يمكن أن تقود الخطى وأبدًا لم يذكر رقمًا لهاتف قد يفتح الطريق! كان حقًا قد سدد كل المنافذ والذرائع التي تحول بينها وبينه حتى يحمي نفسه من مواجهتها، بعد أن أدلى على مسامعها باعترافات تبدو لها مهينة مشينة لا يجرؤ بعدها على النظر في عيون عرفت وشاهدت ولابد أنها حطت كثيرًا من شأن صاحبها!

تخيلت مشاعره تلك وتمنت لو أن هناك وسيلة في العالم تستطيع أن تحمل فيها له وثيقة أمان.. أقسم أني لم أفقد ذرة من احترامي لك.. أقسم أنني تركت الإطار وتعمقت إلى حقيقة الإنسان فيك فأحببتك أكثر..».

ألا يمكن أن تنشأ بينهما تلك الخاصية الاستثنائية للإدراك فائق الحس فيتخاطران لكي يسمع ما تردده قسمًا.. ويرد عليها؟؟...

تذكرت أن علماء الباراسيكولوجي يشترطون، فيما قرأت، أن تكون الموهبة الخاصة للتخاطر «التليباني» أو الجلاء البصري أو الحاسة السادسة

موجودة داخل أصحابها منذ مولدهم وهي لا تكتسب ولا يمكن تعلمها.. إذن فما هو السبيل إليك يا سيدي؟..

خاطر واحد لمع حلاً في رأسها وهي تغتسل في الحمام.. وقفز معها إلى الفراش ليبقى لديها أملاً خافتًا يتيح لها النوم إلى الصباح!.. لقد ذكر في اعترافاته أن رفيقه الصحفي القديم قد أسند إليه إدارة مكتب الصحفية في الإسكندرية.. فلماذا لا يبدأ بحثها من هناك؟



# سوناتا لتشرين (٢٦)

منذ تعيينه رئيسًا لمكتب الصحيفة هنا لم نره إلا لمامًا.. كان يتصل بنا هاتفيا ليتابع العمل - إن كان هناك عمل - و لم يترك لنا عنوانًا.. فقط رقم الهاتف حاولي من خلاله أن تعرفي.

وفي ثلاث محاولات كان الرد واحدًا.. نفس السيدة التي ردت بغضب في المرة الأخيرة.. قلت لك أن الرقم خطأ ولا يوجد عندنا شخص بهذا الاسم.. لو اتصلت مرة أخرى سنبلغ مباحث التليفونات!

وحين نظرت مستفهمة.. أجابها موظف المكتب بأن الرقم تركه الأستاذ منذ فترة طويلة.. وأنهم لم يحاولوا الاتصال به خلال هذه المدة.. ومن المرجح أن يكون قد غيره و لم يهتم بإبلاغهم!

لم تأبه كثيرًا برذاذ المطر.. فقد ارتدت سترتها الجلدية ذات «الكاب» وكان الجو الرمادي ممتعًا..

عبرت شارع «صفية زغلول» إلى محطة الرمل.. وغيرت رأيها في اللحظة الأخيرة قبل أن تستقل الترام وواصلت سيرها إلى الكورنيش! لم يكن البحر غاضبًا.. ولا كانت الرياح نشيطة.. فقط تلك الرخات الرقيقة لأمطار تشرين الوديعة.. تصاحب خطوها وقد ولت وجهها شطر الشرق يسابق أفكارها التي اصطخبت داخل رأسها تبحث عن إجابة للسؤال نفسه.. كيف تعثر عليه..؟ لم يعد هناك من وسائل إلا الرجوع للجنة التي نظمت المؤتمر الذي لقيته في اجتماعاته فربما ترك في ملفاتهم تلك البيانات الروتينية ومن بينها عنوانه..

تذكرت وهي تراجع ملف المؤتمر ذلك المثل الصيني الذي يشير معناه إلى أن أبعد الآمال هو أقربها إلى التحقق.. أجل.. وجدت الاسم والعنوان واضحين وكأنهما يسخران منها «لماذا تغافلت عن المنطقة؟» .. أخيرًا عثرت على الصدفة التي يختبئ فيها صاحبها.. فماذا بعد؟

لم يكن القبطان معتادًا على الشرب في الظهيرة.. ولكنه لا يستطيع أن يتناول الأسماك أو فواكه البحر بدون النبيذ الأبيض، وهو يعرف جيدًا ماذا يفعل به هذا الشراب الماجن العربيد الذي يحوله بعد الكأس الثانية إلى كائن غريب من سلالة منقرضة لم تعد ترد في الحكايات وأهملتها كتابات

الرواة.. مشكلته الحقيقية التي بقيت تؤرقه كلما اضطر إلى تناول النبيذ خارج مسكنه.. إذ ينتابه بعدها ذلك الخوف المرضي من ركوب المصعد، ويضطر إلى صعود المائة والخمسين درجة المؤدية إلى مسكنه.. ذلك الصعود الذي يفسد عليه يومه ويضيع كل ما تبقى من آثار سكرة الظهيرة، واليوم يقف أمام باب المصعد متحيرًا.. إذ يفكر جديًّا في المخاطرة بركوبه وتحمل نوبة الفزع التي يطيش لها لبه أفضل من صعود الدرج اللعين، خاصة أن آلام النقرص باغتته وراحت تنهش قدمه في وحشية بالغة دفعته أخيرًا إلى حسم أمره ودخول المصعد.. وما أن غلق الباب حتى اختنقت أنفاسه وراح يصرخ كطفل مسجون في بيت الأشباح، وانثنى راكعًا على ركبتيه يتشبث بأرضية المصعد فيحس أكثر بالدوار ويتضخم هسيس المصعد في أذنيه ليصبح بعضًا من دقات الطبول في حرب إفريقية لكن هزة الوصول مع حركة الباب ردت إليه أنفاسه فخرج يعدو على ركبتيه ويديه كالجرذ ليتوقف أمام وجه يحملق فيه بعيون تملؤها الدهشة وضحكة مكتومة تندفع بها الخدود وأوداج الرقبة والشفاة المطبقة لغادة شابة تجلس القرفصاء مستندة إلى باب جاره العتيد.. تجمد مكانه.. واتبع دهشته.. ثم – مدركًا ما في المشهد من طرافة – انفجر ضاحكًا وكأنه يصرخ لها بإطلاق ما تحاول كبته.. وبالفعل.. انفجرت ضحكتها بدورها.. وظلا معًا يضحكان لدرجة انبثاق الدمع..

لقد بوغتت وهي تجلس مريحة ساقيها بعد أن فقدت الأمل في أن يرد عليها ساكن الصدفة حتى بعد أن «ماتت» أصابعها على زر الجرس

وكفاها من الدق على الباب المصنوع من خشب البلوط.. وكانت لا تزال تناقش خطوتها التالية: هل تذهب إلى الفندق ثم تعود في ساعة أخرى أم الأفضل أن تظل قابعة عند الباب حتى يرجع إذا كان بالخارج.. وتجلس حتى لا تظهر في العين السحرية إذا كان بالداخل وأربكه حضورها فامتنع عن فتح الباب..

بوغتت وهي تناقش الأمر داخلها.. جرس إنذار المصعد ينبئ بقدومه.. وكانت موقنة بأن القادم لا شك هو.. وقبل أن تقرر هل تقف لتستقبله أم تظل جالسة ليعرف أنها تنتظر منذ وقت طويل انفتح باب المصعد ورأت رجلاً ستينيًا أشيب شعر الرأس واللحية يضع في ركن فمه غليونًا ويحبو على ركبتيه ويديه كفار مذعور.. وكانت البغتة المقترنة بالسخرية وعبثية المشهد تثير داخلها رغبة عارمة في الضحك ولقيت عنتًا كبيرًا لتكبتها وأنقذها هو حين بادر بالضحك من نفسه!

قال وهو يحاول أن يضع مفتاحه في ثقب بأصابعه المرتعدة.. «جاري أخبرني هذا الصباح أنه سيقضي يومًا في الخارج.. حيث ينوي أن يتناول طعامه مع صحفي من زملائه القدامى.. وبعدها سيشهد فيلمًا سينمائيًا يقوم ببطولته ممثله المفضل داستين هوفمان.. أنا شخصيًا أفضل باتشينو ونيكلسون أيضًا..

– أما أنا فمولعة بروبرت دي نيرو!

التفت إليها رافعًا حاجبيه في دهشة: آه دي نيرو.. طبعًا! لماذا نسيته؟ عفوًا هل يمكنك أن تساعديني؟

... كانت يده ممدودة بالمفتاح فتناولته منه وأولجته في القفل..

– أنا مجرد بحار عجوز لا أقوى على تثبيت أصابعي بالمفتاح.. ولك أن تطمئني إلى سلامتك التامة.. فهلا تفضلتي بالدخول لتنتظري الأستاذ أشرف عندي بدلاً من جلوسك على الأرض؟..

لم يرد بخاطرها ولو للحظة أية شكوك تجاه هذا الرجل اللطيف.. رغم ما تسرب إلى أنفها من رائحة النبيذ!

«هو رجل لطيف رغم كل شيء.. قررت لنفسها وهي تصحبه داخل شقته»

– أهي صدفة كصدفة جارك؟
– لا... أنا أسميها قمرة.. الصدفة له.. والقمرة لي..

وتهالك يجلس على كرسيه المجاور للشرفة المفتوحة: ترين أنني ربما كنت في حالة سكر بين لا أقوى معها على الحركة لإعداد شيء لك.. ولكن «الثلاجة» مليئة بكل أنواع العصائر والفواكه.. والمطبخ على يسارك فأرجو أن تعتبري نفسك صاحبة المكان.. عفوًا لا تقاطعيني..

أريد أن أقول أيضًا أن أمامك جهاز التليفزيون.. سلي نفسك أو اقرئي إذا أحببت لأنك ستسمحي لي بغفوة يسيرة أمارسها كما تعودت جالسًا..

أما الجار فهو قد تعود أن ينبئني بقدومه بطرقات ثلاث على الباب..

وما أن انتهى من كلماته حتى أغمض عينيه وانتظمت أنفاسه ورانت على وجهه ابتسامة طفل سعيد.

# سوناتا لتشرين (٢٧)

هالها ما رأت عليه الرجل، وتبدى لها شخصًا غير الذي لقيته منذ أسابيع وسلمها اعترافاته مسجلة على شرائط.. جسد تحول نحوله إلى ما يشبه الهزال وعينان غائرتان في محجرتين دكن لونهما وصارتا أقرب لفجوتين ذابلتين تطلان نظرات تملؤها الحدة والقسوة في تنافر فج مع الضعف المائل في بنية صاحبها وحتى الشعر الذي كان يوم لقيته في المؤتمر رماديًا يختلط الشيب في فوديه بسواد باق تحول خلال تلك الأسابيع إلى البياض الكامل لا تفلت منه خصلة.

تذكرت ما روي لها عن حدث تعرض له أحد أقاربها في جيل سابق حين راهن بعض أصدقائه على أن يبيت وحده في مقبرة شاعت الأقاويل عن ظهور أشباح الموتى بها ليلاً.. وكان الرهان على مبلغ من المال يسيل له اللعاب.. وفي الصباح الباكر ذهبوا ليجدوه مغشيًا عليه وقد تحول شعره

الفاحم إلى لون الثلج الأبيض وروى لها أيضًا أنه لم يلبث بعدها شهورًا ثم مات وهو في ريعان الشباب..

هكذا كانت الخواطر تصطخب في رأسها وهي تجلس أمامه تنظر أن يفتر ثغره المطبق عن ابتسامة ترحيب أو ينطق بكلمة تأنيب.. ولكنه بدا وكأنه يعرف بوجودها في الإسكندرية ولا يستغرب ظهورها.. فقد تلقاها ببساطة المعتاد وفتح لها باب «الصدفة»ثم تهالك جالسًا أمامها وقد أراح رأسه إلى مسند المقعد ونظر لها نظرة استفسار منتظرًا أن تبدأ هي الكلام.

– اعتذر عن زيارة لم أستاذن لها..

هز رأسه إيجابًا.. وخرج صوته خافتًا خاليًا من أي تعبير «خاص «كنت أعرف أنك ستأتينَ!

وقبل أن تجيبه استطرد بنفس الصوت: لماذا تأخرت إلى الآن؟

وغمرتها دهشة أربكتها تمامًا، كانت على استعداد لأي سؤال غير السؤال فلم تستطع أن ترتب أفكارها.. حسبت أنك لا ترغب في حضوري فقد أنذرتني يوم سلمتني شرائط الذكريات بأنك لا ترغب في أن تراني بعدها وحذرتني حتى من محاولة الاتصال بالهاتف..

– أحقًا فعلت؟.. ربما.. وإن كنت لا أعرف لماذا.. وقد نسيت ما قلته لك وداخلني إحساس يقيني بأنني لابد وأن أراك.. حسنًا.. كنت

أرغب في ذلك بشدة.. وليتك بكرت بالحضور.. إذًا لكان هناك أمل في النجاة.

---

تركها نهبًا لمشاعر عاصفة تكاد أن تفتك بقدرتها على التوازن وخرج إلى الشرفة الصغيرة التي تطل بزاوية شديدة الضيق على بحر «لوران».. كان يشهق بقوة من يريد تعبئة رئتيه بكل الأوكسجين الموجود في الفضاء.. ولم يهتم لرذاذ القطر يدغدغ وجهه.. بل بسط ذراعيه فاتحًا كفيه ليبللهما المزن ثم راح يمسح بهما على وجهه وكأنه يؤدي طقسًا أو يتوضأ.. وبدت أذناه حمراوين رغم شحوب وجنتيه.. وحين تقدمت خلفه خيل إليها أن ضربات قلبها المتسارعة بين ضلوعها ليست إلا صدى لصرخات مكتومة في صدره هو.. ورفعت يدها تريد أن تمدها لتربت على كتفه ولكنها علقتها في الطريق.. خشيت أن تفسد عليه لحظة أرادها لنفسه فقط.. حتى جاء صوته مرتجفًا.

– أكملي ما أردت فعله..

رباه! أيحس بك لهذه الدرجة؟!

– لمسة من أصابعك لذارعي أو ربتة على كتفي لن تنقذني. لكنها ستكون عزائي.

تساقطت في جوانحها.. مشاعر هلع دفعت بدموع احتجاج تخنق صوتها قبل أن تطفر من عينيها..

- أرجوك! لماذا تقول هذا الكلام.. الفظيع؟ لماذا تسبب لي كل هذا الرعب.

استدار إليها ببطء.. وكان الحزن يكسو قسمات وجهه كلها.. ولم تدر هل كانت القطرات التي تناثرت على خديه دموعًا أو مطرًا؟ «لماذا جئت؟..»

أصبح القطر غيثًا ينهمر.. ووجهته زاوية سقوط إلى داخل الشرفة وخلال أقل من دقيقتين صمت مرتا بعد السؤال كانا يغتسلان بالماء السماوي.. كان تشرين يؤدي صلواته ويبتهل.. وكانا يصليان ويبتهلان معه.

هو رجل عجوز.. أنهكته تجربة نفسية تشابكت فيها خيوط الماضي بالحاضر والعقل بالجنون.. وهي فتاة ما زالت في سنوات البكور لم تخط بعد أو تقترب من الثلاثين.

مدت يدها مفرودة الأصابع مقلوبة نحوه كأنها تشرح ما عجز عنه لسانها.. كأنها تقول: وماذا كان بيدي أن أفعل وقد احتللت كل أرض يمكنها أن تؤويني وفرضت أفكارك وأحاديثك وتفاصيل هزيمتك حصارًا

حول وعيي واتصالي مع الآخرين وبت لا أسمع غير صوتك ولا أرى إلا ما رويته لي.

كأنها قالت وكأنه سمع.. مد كلتا يديه لتمسكا بكفها الضارعة.

- تلك جنايتي عليك.. وليتني أستطيع أن أعوضك عنها.. لسوء الحظ لم أعد قادرًا على شيء ولا صالح لشيء..
- لقد عبرت الحاجز يا طفلتي.. وهو حاجز لا يمكن أن يعبره الشخص مرة أخرى إلى حيث كان.. حاجز تمنيت أن تأتي وتنقذيني قبل أن أعبره.. ولكنك تأخرت و لم يعد بوسعي غير أن أنقذك أنا.
- أي خطر تراه محدقًا بي وتريد أن تنقذني منه؟
- وجودك هنا الآن!.. رغبتك في لعب دور قارب النجاة.. أو الخشبة التي يتعلق بها الغريق.. لابد أن تعرفي عن يقين أن السفينة قد غرقت و لم تترك ناجين.. ومحاولتك لن تسفر عن غريق جديد!
- أنا لا أنوي لعب أي أدوار يا سيدي ولا أفكر في تقمص شخصية البطلة المنقذة.. وإذا كنت تريد أن تحميني حقيقة فدعني أقرر لنفسي ما أحب.

أنت لا تعرفي شيئًا فلا تجادليني والآن سنترك معًا الصدفة وسأصحبك إلى الفندق الذي تنزلين به لتعدي حقيبتك ونذهب معًا إلى محطة سيدي جابر ولن أبرحها إلا بعد أن أرى قطارك يغادر الرصيف وأراد أن يتبع قراره بالتنفيذ فسحبها برفق من ذراعها.. ليفاجأ برد فعلها العنيف.. إذ

جذبت ذراعها من يده بقوة وهتفت غاضبة: من فضلك إذا كنت تريدني أن أغدر مسكنك سأفعل ولكن موضوع سفري لن يقرره غيري.. وإذا سمحت فلا تحاول أن تلعب معي دور الأب الذي يشفق على طفلته الصغيرة وينقذها من مغبة تهورها واندفاعها..

بخطوات سريعة اتجهت نحو الباب..

- أرجوك! انتظري!

توقفت واستدارت نحوه.. كان المطر قد بلله تمامًا وانسالت خيوط الماء على وجهه وعيناه تلمعان ببريق الرجاء.

- ألا تريدين معرفة أحداث الأسابيع الأخيرة!

# سوناتا لتشرين (٢٨)

وجدتها! كنت أهيم على وجهي ذات مساء وقادتني قدماي إلى تلك المنطقة الصخرية في «بير مسعود».. حيث لمحتها تقف على الحافة.. ربما كانت شبحًا أو طيفًا تجسد في مخيلتي بعد أن ظللت أبحث عنها طوال أشهر.. ولكني تقدمت نحوها فاستدارت تواجهني بابتسامة تسبح في بحر من الدموع! تجمدت خائر القوى.. مسلوب الوعي.. مددت يدي فتناولتني يدها.. أحسست بدفء الحياة برغم برودة أصابعها.. وأيقنت أنها حقيقة وليست أبدًا شبحًا تخيلته.. ومع ذلك فقد تملكني شيء من الغضب والجنون.

- ولكني قتلتك.. وبيدي هاتين حملتك من الفراش إلى الشاطئ وتأكدت من انعدام أي علاقة للحياة في جسدك!
- وهذا ما هيأه لك جنونك.. أنت لم تلمسني.. لقد غلبك النوم إلى جواري.. واستيقظت قبل الشروق وظللت أنظر إلى وجهك

وأراقب أنفاسك مدغمة بأصوات أحلام الفجر الملتاثة.. وإذا بالفكرة تنبثق في عقلي كالإلهام: أتظاهر بالموت وأختفي عنك وعن الآخرين.

- ولكن.. أنا متأكد من أنني تركتك على الرمال وجسدك يحمل بصمات الموت الباردة.
- رغبة مكبوتة كنت تتمني أن تنتقم فيها من أصحاب المؤامرة التي دمرت مستقبلك المهني! وحين شاهدتني ملقاة عند أمواجه المد وأتتك الفرصة لتحقق الرغبة الخائبة.. والانتقام المبتور.
- فما الذي أعادك لتظهري أمامي الآن؟ أصدقيني القول لأني لا أؤمن بالصدفة وترتيبات القدر العشوائية.. كانت قطرات المطر الذي بلله في مدخل الشرفة ما زالت تتساقط.. وهو يرتجف.. وتشتعل وجنتاه بلهب حمى يلمع وهجها في عينيه فنسيت غضبها من محاولته الخرقاء لصرفها وأحست بشفقة غامرة تدفعها لكي تأخذ بيده وتساعده على خلع سترته المبللة.. ثم تجلسه وتتناول منشفة تجفف بها رأسه وهو مستسلم مستكين كطفل يلجأ لأحضان أمه.. ولم يكف لحظة عن الكلام: «قالت إنها أحبتني واختلطت مشاعر الحب عندها بمشاعر الذنب التي تركتها في أعماقها المؤامرة التي حيكت لي واشتركت فيها.. وقالت إنها بعد أن هربت وسافرت فعلاً إلى اليونان لم تستطع أن تستمر وقررت أن تعود.. تمامًا كالمجرم الذي يعود دائمًا ليحوم حول مكان جريمته.. ووجدت نفسها تبحث عني في كل مكان.. وكلما أخفقت تضاعف

إصرارها.. وأصبحت كالمدمن الذي نفذ مخدره.. ولابد له من الحصول على جرعته المعتادة وإلا أصابه الجنون».

- ولكنك أنت من وجدها و لم تجدك هي!!
- رأتني يومها وتابعت سيري ثم حرصت على أن تسبقني لتضع نفسها في طريقي.

و لم تقاطعه بأي سؤال آخر.. لم تحس بجدوى الأكمر.. فقد ازداد اضطراب حديثه واختفى رابط المنطق بين أجزاء حكيه.. وظهرت علامات الحمى أكثر وضوحًا حين لامست أصابعها جبينه فاكتشفت ارتفاعًا مقلقًا في درجة حرارته.. وانتابها الارتباك للحظات.. فليست لديها الجرأة للبحث عن أوراقه عن مفكرة هواتف.. ثم أقلقها أن تستدعي الطبيب أو سيارة المستشفى فيواجهها سؤال عمن تكون وما هى صلتها بالمريض.. و لم تجد في النهاية بدًا من الاستنجاد بجاره القبطان المتقاعد! وبدا جليًا أنه استأنف الشرب بعد مغادرتها لمسكنه.. فقد جاء وهو يترنح ويحاول عبثًا ضبط خطواته.. جلس بجوار المريض وجلست هي على مقربة تتابع حوارًا لم يسبق لها أن شهدت مثله بين محموم وسكران!!

- أقسمت لي أنها تحبني وأنا أصدقها.
- يا لسذاجتك! هل بقى هناك في العالم اليوم من يصدق امرأة؟ كلهن يا عزيزي امرأة واحدة ولكن بأقنعة مختلفة. واسألني أنا.. فقد جبت بحار العالم ورسوت على معظم موانيه.. ولي في كل ميناء حواء تحمل بصماتي.. وتضمخ شعرها لما بقى من أنفاسي!
- ربما كنت تعرف كل النساء لكنك لم تعرف الحب! أنظر.. ها هي

تجلس أمامنا مشرعة الجبين كأنها فينوس أو أفروديتي.. وعيناها تحملان دمعتا حنان يفيض على كل البشر.. أنظر إلى رقبتها وذقنها.. كأنك تنظر إلى رأس نفرتيتي.. ألم ترها في متحف برلين؟ أنظر إلى صمتها.. وإلى وضع كفيها كأنها الموناليزا نفسها بعد أن فرغ منها دافنشي مباشرة.. لقد تركتها عند بير مسعود وطلبت منها ألا تتبعني ولكنها جاءت.. لم تقو على مغالبة عواطفها.. لكنها أحضرت الشرائط التي سجلت عليها اعترافاتي.

نظر إليه القبطان وانفجر ضاحكا: «أيها العجوز الفاني..» عن أي فتاة تتحدث؟ هذه أصغر من أن تكون ابنتك.. وعذرك الوحيد أنك محموم. سأعد لك قدح الشاى بالروم وأدثرك جيدًا بالأغطية التي تفجر مسامك بعرق يغسلك ويطهرك ويشفيك.. اطمئني يا بنيتي.. في الصباح يكون قد استرجع وعيه وعاد إلى عالم العقلاء.. لم يكن المرض قصيرًا كما تخيل القبطان.. بل امتد إلى عشرة أيام كاملة! وإن كان هذيان الحمى قد توقف بعد أولى جرعات العلاج الذي حدده الطبيب.

لم يعد يهذي.. بل لم يعد يتكلم. تملك منه الوهن.. وعلاه شحوب خريفي حزين.. حتى كان اليوم الحادي عشر.. وبعد أن ناولته جرعة الدواء الأخيرة.. أمسك بيدها.. ونظر في عينيها.. ولم تسحب كفها.. وخيل إليها أنها تطالع في عينيه مشروع دمعة مترددة.. وأتي صوته خافتًا متوسلاً: أرجوك.

أرادها أن تودعه وترحل إلى غير عودة.

– يا صغيرتي يجب ألا نعبث بتراتب الفصول.. ولا ينبغي لخريفي

الذابلِ أن يغزو ربيعك الواعد.. ولن نستطيع أن نتجاهل شتاءً فاصلاً.. تعيشينه بشارة لربيعك.. وأعيشه خاتمة لخريفي.. دعك من قصتي كلها.. أنت الآن قد أحطت بكامل فصولها ويمكنك أن تفرغيها على الورق لتكون قصتك الصحفية الأولى وخطوتك الواثقة على درج نجاحات آنية.. لقد شاهدت خطواتي تتأرجح بين الهزيمة وتوهم الانتصار.. وعشت عن قرب ساعات جنوني.. تلك الساعات التي تكون يومي وتمضي بي إلى نهاية طريقي.. ولعلك أيقنت في نهاية الأمر أن مثلي لم يعد صالحًا لمثلك.

مسح دموعها بأصابعه في حنو أب راحل.. وهمس متمنيًا: قربي مفرق شعرك مني.

قبلها.. وربت على كتفها مودعًا.. ثم تأبط ذراعها.. وصحبها إلى الطريق.. لون البحر الأزرق وبقع برتقالية باقية من سيارات الأجرة السكندرية المارقة.. وبنايات قرميدية السطح.. رمادية.. تلوح في ركن العين تغيمها غلالة دموع.. ولونا الأحمر والأسود باقيان من لمحة في رؤية القاطرة المغادرة.. ومباني الإسكندرية تبتعد.. وأشجار قصيرة.. ونباتات برية وروائح مواد بترولية محترقة.. ثم تقترب مساحات تملؤها شجيرات الموز بأوراقها العريضة.. وتبدو سماء تشرين من نافذة القطار رمادية تنذر بأمطار وشيكة.

# المحتويات

# منافذ بيع مكتبة الأسرة
# الهيئة المصرية العامة للكتاب

**مكتبة المعرض الدائم**
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة - ت: ٢٥٧٧٥٣٦٧

**مكتبة مركز الكتاب الدولى**
٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة ت: ٢٥٧٨٨٤٣١

**مكتبة ٢٦ يوليو**
١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٨٤٣١

**مكتبة شريف**
٣٦ ش شريف - القاهرة - ت: ٢٣٩٣٩٦١٢

**مكتبة عرابى**
٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة -ت: ٢٥٧٤٠٠٧٥

**مكتبة الحسين**
مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة
ت: ٢٥٩١٣٤٤٧

**مكتبة أكاديمية الفنون**
ش جمال الدين الأفغانى من شارع محطة المساحة- الهرم
مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة
ت: ٣٥٨٥٠٢٩١

**مكتبة الإسكندرية**
٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية - ت: ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

**مكتبة الإسماعيلية**
التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦ مدخل أ - الإسماعيلية - ت: ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

**مكتبة جامعة قناة السويس**
مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة - الجامعة الجديدة - الإسماعيلية - ت: ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

**مكتبة بورفؤاد**
بجوار مدخل الجامعة ناصية ش ١٤، ١١- بورسعيد

**مكتبة أسوان**
السوق السياحى - أسوان - ت: ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

**مكتبة دمنهور**
ش عبد السلام الشاذلى - دمنهور

**مكتبة ساقية عبد المنعم الصاوى**
الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو
من أبو الفدا - القاهرة

**مكتبة المبتديان**
١٣ ش المبتديان - السيدة زينب امام دار الهلال - القاهرة

**مكتبة ١٥ مايو**
مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز
ت: ٢٥٥٠٦٨٨٨

**مكتبة الجيزة**
١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة - ت: ٣٥٧٢١٣١١

**مكتبة جامعة القاهرة**
بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى - الجيزة

**مكتبة رادوبيس**
ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة مبنى سينما رادوبيس

**مكتبة أسيوط**
٦٠ ش الجمهورية - أسيوط
ت: ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

**مكتبة المنيا**
١٦ ش بن خصيب - المنيا - ت: ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

**مكتبة المنيا (فرع الجامعة)**
مبنى كلية الآداب - جامعة المنيا - المنيا

**مكتبة طنطا**
ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا
ت: ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

**مكتبة المحلة الكبرى**
ميدان محطة السكة الحديد عمارة الضرائب سابقًا

**مكتبة المنصورة**
٥ ش الثورة - المنصورة - ت: ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

**مكتبة منوف**
مبنى كلية الهندسة الإلكترونية- جامعة منوف

# مكتبـــات ووكــلاء
# البيع بالدول العربية

## لبنان

**١- مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب**
شارع صيدنايا المصيطبة - بناية الدوحة - بيروت
ت: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣
ص. ب: ٩١١٣ - ١١ بيروت - لبنان

**٢- مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب**
بيـروت - الفرع الجديد - شارع الصيداني - الحمراء - رأس بيروت - بناية سنتر ماريا
ص. ب: ١١٣/٥٧٥٢
فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

## سوريا

**دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع -**
سوريا - دمشق - شارع كرجية حداد - المتفرع من شارع ٢٩ أيار - ص. ب: ٧٣٦٦ - الجمهورية العربية السورية

## تونس

**المكتبة الحديثة - ٤ شارع الطاهر صفر -**
٤٠٠٠ سوسة - الجمهورية التونسية.

## المملكة العربية السعودية

**١- مؤسسة العبيكان - الرياض**
(ص - ب : ٦٢٨٠٧) رمز ١١٥٩٥ - تقاطع طريق طريق الملك فهد مع طريق العروبة - ت: ٤٦٥٤٤٢٤- ٤١٦٠٠١٨

**٢- شركة كنوز المعرفة للمطبوعات والأدوات الكتابية**
جدة - الشرفية - شارع الستين - ص. ب: ٣٠٧٤٦ جـدة: ٢١٤٨٧ - ت: المكتب: ٦٥٧٠٧٢٢ - ٦٥١٠٤٢١ - ٦٥١٤٢٢٢ - ٠٦٥٧٠٦٢٨

**٣- مكتبة الرشد للنشر والتوزيع -**
الرياض - المملكة العربية السعودية - ص. ب: ١٧٥٢٢ الرياض: ١١٤٩٤ - ت: ٠٤٥٩٣٤٥١

**٤- مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية**
- الجوف - المملكة العربية السعودية - دار الجوف للعلوم ص. ب: ٤٥٨ الجوف - ت: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠
فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٧٨٠

## الأردن - عمان

**١- دار الشروق للنشر والتوزيع**
ت: ٤٦١٨١٩٠ - ٤٦١٨١٩١
فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

**٢- دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع**
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
ت: ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥+
ص .ب: ٥٢٠٦٤٦ - عمان: ١١١٥٢ الاردن.



**دار العين للنشر**

طبعة خاصة بمكتبة الأسرة ٢٠١٠

٩٧ كورنيش النيل ، روض الفرج ، القاهرة

ت : ٢٤٥٨٠٣٦٠ فاكس : ٢٤٥٨٠٩٥٥

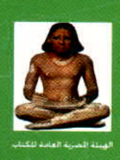
E-mail: elainpublishing@gmail.com



تذكرت بمناسبة مرور عشرين عامًا على بدء مشروع القراءة للجميع عام ١٩٩٠، حكاية تقول إن الفيلسوف اليوناني "أرسطو" كان معلمًا للإسكندر المقدوني، وإنه استطاع أن يشحن وجدان الإسكندر، ويشحذ رغبته ولعًا بكل أشكال التعليم والقراءة، حتى إن الإسكندر لم يكن يظهر إلا وفي يده كتاب، لكن حدث خلال إحدى رحلاته إلى آسيا أن عانى قلة الكتب، فإذ به يأمر أحد قادة جيوشه أن يحضر له بعض ما يقرؤه وكأن هذه الحكاية قد جاء تذكرها بمثابة حساب للنفس عما أنجزناه حتى لا يعاني أحد قلة الكتب وجودًا وثمنًا، فتجلت مكتبة الأسرة، التي بدأت عام ١٩٩٤، هي المصالحة الواقعية التي تجاوزنا بها تلك المشكلة، تحقيقًا للإتاحة العامة للكتاب، وذلك بالربط بين اتساع إصداراتها المتنوعة في شتى مجالات المعرفة، والدعم المادي الذي تتمتع به أسعار تلك الإصدارات، فتجعلها في متناول الجميع. وقد تلازم نشاط مكتبة الأسرة لسنوات عدة مع فعاليات مشروع القراءة للجميع، لكننا أخيرًا أكدنا ضرورة استمرار إصدارات مكتبة الأسرة طول العام، انطلاقًا من حكمة قديمة مازالت تعاصرنا، وهي أن من يستطيع القراءة، يستطيع رؤية ضعف ما يراه الآخرون.

سوزان مبارك





ISBN# 9789774215245
6 221149 017634




٣ جنيهات